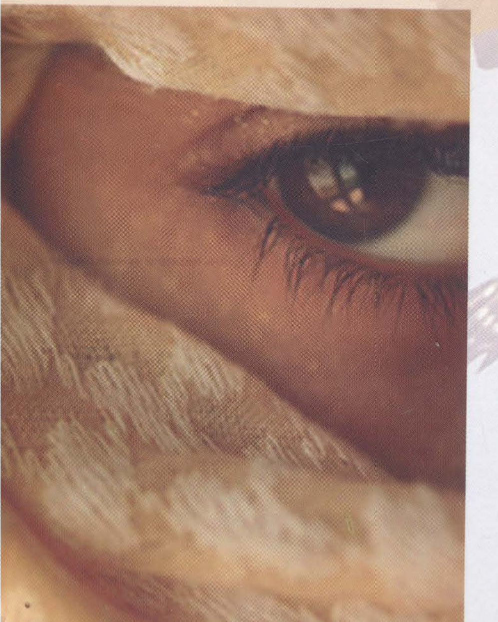
حته و عیون شربت

یوسف عزیزی بنی طرف




بسم الله الرحمن الرحیم

حتة و عيون شربت

مجموعة قصص

يوسف عزيزي



هوية الكتاب

اسم الكتاب: .... حتة وعيون شربت

تأليف: .... يوسف عزيزي

الطبعة: .... الأُولى / ١٣٨٧ هـ ش

المطبعة: .... اصيل

الناشر: .... انتشارات حضرت العباس عليه السلام

عدد النسخ: .... ١٠٠٠ نسخة

القطع: .... رقعي

عدد الصفحات: ١٨٤صفحة

شابك: ٩-٨٠-٨١٥٨-٩٦٤-٩٧٨

عودة النص

عودة النـص هـو مـصطلح يـطلق عـادة عـلى تـعريب قصص و روايات كتُبت بلغات غير لغة الضاد. فهنا تعود هـذه النصوص المفكرة أساساً باللغة العربية و التي كتبها قصصيون وروائيون عرب بلغات غير عـربية - كـالفرنسية والانـجليزية والفارسية.. الخ - تعود إلى اصلها العربي.

ووفقا لما ذكرت فان قصص هذا الكتاب تقع ضمن هذا التصنيف اي انـها تـعود إلى اصـلها العـربي بـعد ان ظـهرت ونُشرت باللغة الفارسية.

وقد انتقيت قصص هذا الكـتاب مـن مـجموعتيّ حـتة

والنهر والمستنقع، وعيون شربت اللتين نشرتهما باللغة الفارسية بشكل كتابين منفصلين في إيران خلال الاعوام الماضية.

وبما انني انتقيت هذه القصص الخمسة عشر من المجموعتين المذكورتين آنفا فقد سميت المولود العربي هذا حتة وعيون شربت أي انه يضم قصصا من المجموعتين. كما وأضفت في نهاية الكتاب تعليقات حررها نقاد عرب على بعض القصص التي نُشرت سابقا في أحد مواقع القصة العربية على الانترنت.

فما عدا قصتي «النخلة» و«أنا ومطرود وعبود» اللتين ترجمهما الصديق جابر العاملي وقصة «ماء الحياة» التي ترجمها الصديق عمار تاسائي وهما مشكوران على ذلك، فقد قمت بترجمة سائر القصص الأُخرى بنفسي.

النخلة

اصبت بالدوران وشعرت بالغثيان وكـذرات الرمـل التـي توضع في «الجبالة» اخذت ارتمي في هذه الجهة تارة وفـي الجهة الثانية تارة أُخرى. كنت عائما داخل كرة سوداء قـاتمة ولم استطع السيطرة على نفسي. حقيقة هذا لم يكـن بـارادة مـني، فـهناك قـوة خـفية اوقـعتني فـي تـلك الحـفرة النـتنة والمظلمة دون رغبة مني، كـانت تـلفني وتـدورني. جـدرانـها حمراء وربما لم يلامسها الماء لساعات أو لأيام، الا ان هناك سائل لزج يتدفق من النبع الموجود فـي اعـلى المـغارة مـما يجعل جدرانها مبتلة ورطبة.

بعد ان امتصتني جيدا وبقيت هيكلا عظيما جافا ويابسا وفي الرمق الاخير وضعتني بين شفرتين حادتين تشبهان الكماشة ثم ضغطت عليّ بقوة كبيرة وقذفت بي للخارج، أو بعبارة أُخرى بصقتني وكانما تريد ان تهدي غضبها فداء للارض. وبعد ان لفحتني اشعة الشمس هدأ روعي وخرجت من تلك الحالة اللزجة الرطبة التي كنت فيها. كان الطقس حارا بل وحارقا. وحين وقعت على الأرض شعرت بالحرارة اكثر فاكثر. لم تكن ارضا بل بحرا واسعا لا حدود له ولكي اتاكد فركت عيناي. نعم انه بحر واسع يثير الدهشة والعجب. اخذت اسأل نفسي لماذا لون البحر هكذا وهل من الممكن ان يكون البحر احمرا بهذا الشكل؟ امواجه المتلاطمة تشبه اسنان القرش وهي على اهبة الاستعداد للنهش.

انا لم اتي من العدم، كما انني شاهدت هذا الكون من قبل. وكما اتذكر كان بحار هذا العالم كلها زرقاء واحيانا تتبدل إلى لازوردية. غير ان هناك كان للبحر لونا اخر. وبالرغم من نحول جسدي وهزالته عندما كنت محلقا في الفضاء لم تسعنا الدنيا من الفرحة لتوقعي انني ساشرب بعد هنيهة ماءا عذبا وساسلم جسدي لرطوبة هذا البحر وسوف اريح نفسي من

عناء هذا الطقس الجاف المحرق. الا انه ما ان لامس جسدي مياه هذا البحر الاحمر الواسع حتى اشتعلت النار فيه. حرقة مؤلمة سرت في جميع انحاء جسمي الناحل. فمن تلك الحفرة النتنة الرطبة، قذفت إلى هذا البحر الجاف، بدأ جسمي يسخن شيئا فشيئا ومع مرور الوقت اعتاد على هذه الحالة وبينما كنت ضائعا وحائرا غمرتني موجة عظيمة كالجبل وغطت جسدي باكمله.

مرة أُخرى اسودت عيناي ولم تعد ترى اي شئ وبقيت مدفونا تحت اكوام من الرمل والحصى. نعم ما كدت اعتاد على النور والضياء حتى اخذتني الظلمة مرة أُخرى إلى احضانها، مدفونا تحت تلك الكثبان الرملية. لكن حسن هذا الموقع هو انه اكثر برودة من تلك الصحراء المحرقة الخالية من اي نبات. لم يكن لي مونسا سوى ذلك اللحن السمفوني الجميل الذي وصل إلى مسامعي من بعيد في احدى الليالي. استمعت إلى ذلك الصوت العذب الدافئ بكل رغبة، ثم اصبح انيس وحدتي في الليالي.

وعندما كان يظهر القمر ويصبح بدرا ويضئ بين غيوم السماء كوجه عروس جميلة، كانت تعطيني تلك السمفونية

المقمرة وبايقاعاتها الموزونة ولحنها العذب لحنا وقوة. وعندما كان القمر يغيب ويختفي، كان ذلك الصوت بدوره يبتعد عني. لذلك كنت ابقى حزينا حتى تعود الليلة الرابعة عشرة وما ان اسمع ثانية ذلك الصوت الحالم البهيج واستمتع به حتى اشعر وبالتدريج ان عالما اخضر وشفاف قد استولى على كل وجودي.

كنت قد تغيرت وقلبي كبر وكاد ان يخرج من مكانه. ترى ما هو سحر تلك السمفونية المنعشة النفوس حيث بدت لي ظلمة الاقبية جميلة ورائعة؟ ومن شدة الحماس والشوق والوله كنت امزق ثيابي واقطع قلبي اوصالا لاهديه لصاحب تلك السمفونية الصاخبة. الان اصبحت لدي اياد وارجل عديدة، اخذت تمد جذورها إلى اعماق التربة.

وفي ليلة مقمرة عندما وصلت إلى سمعي تلك النغمة العذبة، مددت يداي لاحتضن امواجها الزرقاء، احنيت رأسي وقلت:

- اني مدين لك في وسط هذه الرمال والحصى الصلدة.
- وبقدرتك وطاقتك.
- لو لم تكن سمفونيتك المقمرة، لكنت اليوم مدفونا

في اعماق التربة. ففي هذه الحياة الموحشة كانت تلك الموسيقى البحرية الصاخبة طعامي وشرابي، املي اللازوردي الذي كنت احيا به.

فعندما اقترب ذلك الصوت الازرق اكثر قال لي:

- لا يزال امامك عدة سنين لكي تطور نفسك تحت اشعة الشمس الساطعة وان تغسل رجليك في بحر الحصى والحجارة وان تسرح شعرك الاخضر وتمشطها بعواصف الرمال.

- لا حزن ينتابني طالما ان موسيقاك السماوية موجودة وهي تطرب بمدها وجذرها روحي الولهانة.

عندما كان ذلك الصوت الازرق السحري يبتعد عني ويجرجر فستانه المائي ناديته وقلت مرة أُخرى:

- اعترف، اعترف اني قد بعثت من جديد من سحر تلك السمفونية المقمرة. ان موسيقاك السماوية كانت السبب كي اترعرع وارفع هامتي إلى عنان السماء.

سألتني معاتبة وبنبرة تبدو وكأنها تجني في داخلها احزان الاف السنين:

- تكلم عن البدايات، عن ذلك الذي له حق عليك.

عندما هدأت الامواج، جلست بدوري واستعدت بذاكرتي تلك الايام التي كان يشتد فيها عودي واترعرع واطول. وبينما كنت على هذه الحالة رأيت رجلا مسنا محني الظهر يعتمر كوفيه بيضاء جاء من بين تلك الرمال. نثر على وجهي وجسمي مسحوقا معطرا ذو رائحة زكية ومضى. لقد عادت الي روحي ونشاطي، كنت ابن تسع سنين حينما سقطت اسناني البنية وحلت محلها اسنان جديدة ناصعة البياض، اسنان تلمع كلمعان النجوم في السماء وتبشر بالامل.

ففي تلك السنة اخذ الرجل المسن يربت على كتفي ويقول:

- في السنة القادمة ستبلغ العاشرة وعليك ان تطعمنا الحلوى.

في الربيع العاشر تمنطق «الفروند»[١] وتسلق، اخذ شفتاي البنيتان بيده الخشنة ثم طبع قبلة قوية على اسناني الفضية وعلى وجهي، ثم نثر رحيق الحياة وذهب.

عندما مضت عدة شهور وحل موسم نضوج التمر لم

---

١ الفروند: الة تقليدية يستعملها الفلاحون الاهوازيون لتسلق شجرة النخيل.

يأت الرجل المسن كعادته، بل جاءت هذه المرة امرأة عـجوز حزينة ترتدي عباءة سوداء لم تنطق ببنت شفة، ملأت سلتها بثمار التمر وذهبت. وخلالها وضعت حبة من التمر في فمها، فـحصلت عـلى الطـاقة ومشت وقـطعت المسـافات. فـرحت العجوز لانني كنت حلوة المذاق، حلوة جدا احلى من السكر.

فجأة اصبت بالدوار وشعرت بالغثيان واخـذت ادور فـي فناء اسود وخال وبعد ان امتصتني حـتى اخـر قـطرة وبـقيت هيكلا جافا وفي رمقي الاخير قذفت في الصحراء.

ريمي

أحضرت معي ريمي لتأكل الفئران وهاهي قامت بإبادتهم بفاعلية ونفذت مهمتها بشكل جيد.

لم نعرف الراحة أبدا قبل مجيء ريمي هنا، وكانت الفئران كالملوك تسرح وتمرح في كل أقسام الباخرة.

في عبادان طلب مني الربان قطة ذات شهية كبيرة لأكل الفئران وقد أحضرت له إحدى قططي المدللة وأطلقتها في الباخرة. أحببت ريمي في بيتنا كأطفالي ومن صميم قلبي، وفي الفترة الأخيرة أصبحت أنيستي الوحيدة في الباخرة؛

أحضرت ريمي لألبي طلب الربان فقط؛ لكن لو كان هذا الطلب من رئيس الباخرة لرفضت لأنني كنت أفضل أن يصاب بالطاعون ويموت موت الزؤام.

لعلكم تسألوني عن سبب كرهي لرئيس الباخرة وياليت ترون وجهي ويدي كي تعرفوا الحقيقة.

هذا الحادث أيضا وقع في عبادان، عندما كانت الباخرة راسية قبالة المصفاة. أنا وزملائي كنا نستعد لتصليح غلاية الباخرة، إذ فجأة تسرب بخار غليظ وساخن من الغلاية وملأ الأطراف، ولو استمر تسربه لحظات أكثر لاختنقنا جميعا.

جيد، البخار لم يتسرب بشكل اعتباطي ولم يفتح أحد من زملائنا صمام الغلاية؛ إذن ـ ودون شك ـ أن شخصا ما قام بفتح الصمام ليملأ البخار الغرفة بمثل هذه الكثافة. أنا متأكد أن أحدا لم يقم بهذا العمل إلا رئيس الباخرة وهو الذي أعطى أوامره لتنفيذ هذا العمل الإجرامي؛ هذه ليست تهمة موجهة لأحد؛ وجميع زملائنا يعرفون جيدا السبب الذي يكمن وراء مثل هذه التصرفات الرعناء وبهذه الطريقة الخطرة.

كان رئيس الباخرة يصر أن لا نقوم بتصليح الباخرة في

ميناء عبادان وكان يفضل ميناء الأسكندرية لهذا الغرض. هو نفسه قال لأحد الزملاء بالانكليزية وبلهجته اليـونانية «الآن وبعد أن قررنا أن نتأخر بـعض الوقت للـتصليحات، لمـاذا لا نرسوا في ميناء الاسكندرية، عروسة البحر ومدينة الاستجمام والكازينوهات والبلاجات الذهبية».

وها نحن عوقبنا بهذا الشكل لإصـرارنـا عـلى تـصليح الغلاية في عبادان. طبعا الرئيس لايعتبر نفسه مذنبا ويدعي أن الحادث وقع بسبب خطأ ارتكبه زملاؤنا المصلحون.

ويا للأسف قد احترقت وجوهنا وأيدينا قبل أن نـصل إلى الشاطئ الذهبي في الاسكندرية. لذلك نحاول الا نظهر كثيرا على ظهر المركب، غير أن طبيعة العمل تـتطلب شـيئا آخر، حيث ينبغي أن نكون في كل مكان؛ داخـل البـاخرة أو على ظهرها، تـحت الشـمس الحـارقة أو فـي الظـلال. فـي الحقيقة أن أشعة الشمس تعمق من جروحنا وحروقنا.

مدى العين تنظر، مياه البحر مبسوطة على بساط اللـه وللمياه ألوان في كل ساعة من ساعات اليوم: في الفجر لونها أخضر وفي الصباح لازوردي وفي الظهيرة لونها فضي وفـي المساء يميل إلى الذهبي وفي الليل يتحول إلى أسود قاتم.

لم نر شيئا في الأفق المنظور سوى الماء؛ إذن هو ماء وليس سرابا ! وأنت عندما تقف على شاطئ البحر، ترى الماء عظيما جميلا عزيزا على القلب لكن عندما تركب الباخرة وتمكث في المياه البعيدة عن اليابسة لأكثر من يوم أو يومين أو شهر أو شهرين فتصبح كالماء مادة سائلة بلاطعم ولالون.

صار لنا أربعون يوما ونحن عائمون في المياه. أحيانا نصاب جميعا بحالة تشبه الانجذاب؛ لم يبق لي ولجميع زملائي أي مزاج؛ حتى الكلام أصبح بلامعنى وتركنا الثرثرة؛ كما أن الراديو لم يستطع أن يغير من أحوالنا. لم يهمنا أي شيء، لا اغاني عبدالوهاب ولا رواية العجوز والبحر لارنست هيمينجوي. الربان هو الوحيد الذي يُسمح له أن يعيش مع زوجته في الباخرة؛ وها هو يقضي وقته في اللعب واللهو.

الرئيس سكير والبحارة جميعا سكارى دائما. أرى ريمي منهكة ومتضايقة؛ ريمي المفعمة بالنشاط والحركة والتي كانت تجوب الباخرة عرضا وطولا وطبقات، وتصطاد الفئران في أي لحظة تشاء باتت الآن تتسكع على ظهر الباخرة وتحملق في مياه البحر.

فكرت أنه لا بد من إخفائها مرة أخرى وعزلها عن

العالم الخارجي. أصيبت ريمي قبل نصف شهر تقريبا بمثل هذه الحالة وأصبحت شبه مسعورة؛ كانت تموء باستمرار وتدور حول نفسها، كأنما أصيبت بدوار البحر أو ضاع منها شيءٍ ما. كانت تفتح كفها كالأسد وتهاجم أي شخص يواجهها.

أمسكتها لأعصب عينيها بقطعة قماش حتى لا ترى أي شيءٍ؛ قاومتني بكل قواها وخدشت يدي ووجهي ومزقت قميصي. كان عملا شاقا جدا غير أني استطعت في النهاية أن أعصب عينيها وأخبئها في مكان ما حتى لا ترى البحر ولا تشم رائحة المياه الزفرة.

بعد خمسة أيام فتحت العصاب؛ هدأت ريمي وتحسنت أحوالها بعض الشي وبدأت تصطاد الفئران من جديد.

وبعد كل ما جرى، هاهي الآن أمست أكثر منطوية على نفسها ولا يسليها أي شي. فكلما تطول فترة الإبحار تنطوي ريمي أكثر فأكثر على نفسها. والبحارة يسلون أنفسهم باللهو واللعب ليملؤوا الفراغ القاتل في حياتهم.

الآن وفي هذا المساء الممل، أرى ريمي وقد تغير مزاجها وأصبحت كما كانت قبل نصف شهر؛ تركض على ظهر الباخرة وتخرج لسانها أحيانا ولا ينقطع مواؤها لحظة

واحدة؛ تجلس على حافة الباخرة وتحملق في مياه البحر؛ أتصور أنها تريد أن تقرأ شيئا أو تهاجم شيئا ما، أو كأنما تتابع أثر سمكة في البحر.

لا، ليس تحملقها في المياه لاصطياد السمك. يبدو هي أيضا أصبحت منجذبة؛ صار لها ساعتان وهي محدقة في المياه، ربما هناك علاقة مغناطيسية بين عيون ريمي البرتقالية ومياه البحر الذهبية.

لا أستطيع بعد الآن أن أعصب عيون ريمي الجميلة ولا يمكنني أن أراها معصوبة العينيين لا تراني.

«عجوز» همينجواي يصارع السمكة الكبيرة ونحن مصابون بمرض الصمت الرهيب؛ صمت البحر والإنسان، ومصابون بداء العزلة والانطواء؛ نحن لانصارع الصمت الواسع كالبحر، بل نصارع أنفسنا حيث من الممكن لهذا الصراع أن ينتهي إلى خيبة أمل مطلقة.

«العجوز» لم يمكث في زورقه الصغير في البحر سوى عدة أيام ونحن صار لنا أربعون يوما منقطعين عن العالم الخارجي في هذه الباخرة التي تشبه مدينة للأموات المتحركة.

الربان يبدو في أتم الراحة لأن غرفته تحتوي على كل ما يشاء من حمام ومغسلة ومطبخ ويعيش مع زوجته مثلما يعيش في بيته؛ لكن هؤلاء أيضا صار لهم زمان لم يتكلموا مع بعض.

أنا متفرج فقط أو في الحقيقة كلنا أصبحنا متفرجون. القطة تحملق في البحر اللامنتهي، ربما تفكر في ذكرها ولا تلقاه وهذه الحالة تكون السبب بألا ترى إلا الظلمة والسواد.

هنيهة وأسمع صوت سقوط شيء في البحر. القطة تغيب عن نظري. أنظر إلى جميع الجهات، لكنني لا أراها، أظن أن البحر قد فعل فعلته وجذبها إليه.

أحدق في مياه البحر، الأمواج تقذف ريمي إلى هنا وهناك؛ لا تحرك ساكنا ولا تحاول أن تخلص نفسها؛ وها أنا أراها كيف تغطس في مياه البحر رويدا رويدا لتصل إلى القاع، فريسة سمينة وطازجة لسمكة قرش أو حوت جائع.

حتة

علم المتهم بما يخططون له عند ما ضرب المحامي بقبضته على الجدار غاضبا بعيد تلاوة القاضي الحكم الصادر بحقه.

كان البيان مقتضبا: المحكمة تصدر حكم الاعدام على حاتم الكعبي المعروف بـ «حتة» لارتكابه جريمة الهجوم على مخفر لقوات الامن في مدينة الشوش.

اغتنم الفرصة لتوديع اشقاءه وتقبيل وجه امه العجوز. قيدوا يده بيد احد الشرطة ليجلسا جنبا إلى جنب في قفس

السيارة لتنقلهم إلى مدينة الاهواز؛ فيما تولى شرطي آخر قيادة السيارة.

الطقس كان مغبرا بفعل الزوابع الرملية، حيث كانت الرؤية تتم بصعوبة. فالاحمرار كان باديا على عيون المارة وهم يبدون مصابين بمرض الحُثار.

خطرت فكرة على باله لكنه سرعان ما تخلى عنها. الامر مبكر. فكرة الهروب شغلت باله منذ ان ضرب المحامي بقبضته على الجدار.

قال الشرطي البدين ذو الشوارب الكثة الملتوية إلى الاعلى للشرطي الاخر الهزيل جسميا:

- ألم يكن بامكانهم ان يحتفظوا به لمدة ليلتين او ثلاث في مدينة دزفول؟

- يبدو انهم يرغبون في التخلص منه.

- لافرق أين يتم الاعدام، هنا او في الاهواز.

- يخشون اعدامه في دزفول؛ فالمدينة صغيرة ويوجد فيها ابناء عمومته واقرباؤه.

كان الشرطيان يتحدثان بصوت عال بسبب ضجيج السيارة. فقال الشرطي البدين:

- تكلم ماشئت، السجين لم يتقن الفارسية.
- إلى اي سجن نأخذه في الاهواز؟
- سجن «آخر اسفالت».
- كـان يـجب عـليهم ان يـبعثوا مـعنا شـرطيا ثـالثا، فالمسافة بين دزفول والاهواز ليست بالقريبة.
- لاتوجد لديهم قوة اضافية أوّلاً؛ وثـانيا السـنا نـحن رجال، شرطيان مسلحان مقابل رجل اعزل مكبل.

تلاقت نظرات السجين مع امواج نهر الدز. شعر بالتهاب المياه وكأنها مشتعلة. شاهد الضفة المرتفعة للـنهر ومـن ثـم الدوامة تحت الجسر حيث كانت المياه تـتماوج. فـلم يـخطر بباله الغطس في هذا النهر ولم يتذكر ذكريات السباحة فـيه. ركز جل تفكيره على حاله في تلك اللحظة حيث لم يـنقض من عمره الا خمسة وعشرون ربيعا. فـقد كـان ومـنذ نـعومة اظفاره يسبح في مياه هذا النهر.

- ويل لك يا نظام السلطنة، لو بقيت حيا سألقنك درسا لن تنساه.

قال هذا في قرارة نفسه؛ وعند انـطلاق السـيارة القـى نظرته الاخيرة على النهر؛ فرأى امـه وعـلى رأسـها عـبايتها

العربية واشقاءه وكوفياتهم الحمراء اللائي ذكرته بدماء ابيه.

في الصحراء القفراء بين مدينتي دزفول والاهواز كان يحاول ان يغلق عينيه ليغفو وينام غيران السيارة كانت اشبه بالحمام الساخن اثر الحرارة الشديدة المتسربة من سقف السيارة. كان ضجرا منهكا غارقا في العرق ودماغه ساخنا من زحمة الافكار. رفع رأسه إلى السماء هامسا:

- الهي انت شاهد كيف صادروا اراضينا وخربوا بيوتنا وقتلوا والدي وجعلونا سائبين مشردين. الهي، ادعوك ان تنتقم لنا.

اخفض رأسه وحدق في عيون حارسه ومن ثم تبسم.

- انتبه.
- لماذا؟
- لاشي. يجب ان تنتبه، فلهذه الابتسامة معنى.
- لن اسمح له بالتحرك.

اشعل السائق سيجارة وقال:

- هذه المنطقة تعج بالمتمردين على الحكومة.
- تصور، إلى أي منطقة نفوني!
- لهذا اقول انها مليئة بالمتمردين. فقد سبق وان

ازعج شخصا كأبن الكلب هذا قوات الامن قبل خمسة عشر عاما. كان يصول ويجول في مناطق بني طرف والبسيتين والحويزة وهور العظيم. فلاانسى احدى عملياته ابدا. فقد كنا نطارده حتى قيل لنا أنه ضيف في احدى القرى النائية. مجموعتنا كانت تضم ضابطا ورئيس عرفاء وسبعة من عناصرالامن الداخلي. كان المتمرد ضيفا في احدى مضايف القرية حيث قمنا بمحاصرة «المضيف» من كل الجهات. كنا نكرهه وكانت اعماله تثير غضبنا حيث كان ملفه وحتى ذلك الوقت يحتوي على اغتيال احد عشر عسكريا.

اخبرونا بانه لايحمل السلاح حيث استأسدنا جميعا وكان كل واحد منا يرغب بالفوز بالجائزة التي خصصتها الحكومة لرأسه. طلبنا من الضيوف ان يخرجوا من المضيف حيث خرج الجميع ماعدا ذلك المتمرد. لم تفلح تحذيراتنا وتأكيداتنا لخروجه من المضيف. فقد تقدم الملازم مدني قائد المجموعة قائلا بصوت عال: «دعير، دعير، من الافضل لك ان تستسلم، لابد وان تستسلم». لم نسمع ردا من داخل المضيف. فقد كرر الضابط مرة أُخرى طلبه: «اخرج يا دعير؛ فاذا قمت بتسليم نفسك ستبقى حيا وسنخفف من عقوبتك».

لكن لم يأت اي رد من ذلك المتمرد.

فقد عاد الضابط بضع خطوات إلى الوراء وآمر باعلى صوته:

«اطلقوا النار». غربلنا بالرصاص ذلك المضيف المصنوع من القصب حيث كان ينهمر بغزارة من يمينه إلى شماله ومن شرقه إلى غربه. تصورنا ان الامر قد انتهى وان المتمرد لقى مصرعه.

فقد هم الملازم مدني بالدخول إلى المضيف وهو يحمل رشاشا بيده. كنا نتوقع بان يخرج ومعه جثة المتمرد دعير. مضت خمس دقائق، ومن ثم عشر دقائق ولم يخرج مدني من المضيف. ساورنا القلق رويديا رويدا. كان رئيس العرفاء جبانا نوعا ما؛ فلم يدخل المضيف الا مع اثنين من العسكريين. ففور دخولهم ارتفع ازيز الرصاص من المضيف. الصوت كان صوت رشاش. فبعد هنيهة انقطع الصوت ولم يخرج هؤلاء الثلاث أيضاً من المضيف. اصبنا بالذعر جميعا حيث لاانسى ما قاله لي المرحوم رئيس العرفاء النائب رضا: «انني اتكهن بان الجن يعشش في هذا المضيف، فماذا حدث لهؤلاء والمتمرد لم يملك سلاحا». فقدنا معنوياتنا تماما وإذا

بالعسكريين يفرون من مكان الحادث وانا وراءهم.

سأله الشرطي الثاني:

- ألم تعرفوا ماذا حدث؟

- اطلعنا فيما بعد بان المتمرد كان وراء العملية. كان يختبي فوق خشبة منصوبة افقيا تحت سقف المضيف. فعند دخول الملازم مدني قفز دعير عليه وخنقه بيديه واخذ رشاشه حيث قتل به العسكريين الثلاث الذين دخلوا بعد الملازم إلى المضيف. كان انسانا عجيبا.

اخذ حتة يفرك عينيه المنهكتين بكفه اليمنى لكن لم يمهله الشرطي حيث صوب بندقيته إلى رأسه متسائلا:

- ماذا بك تتحرك؟

كانت المفردات الفارسية تطن في اذنه وترسب على غشاءها الطبلي وتنمحي. عندما كان يرغب في التدخين لم يعرف ما ذا يقول لسجانيه حيث حرموه من لغة الاشارة أيضاً. فكان الشرطيان يثرثران احيانا أو يشيران بايديهم وشفاههم ويقهقهان.

تخيل حتة مدى عنائه مع السجانين حيث لم يفهم لغتهم ولم يفهموه. فقد همس مع نفسه: «من الذي يدرك

هذه المأساة؟ فلو كانوا يفهمون لغتي لاستطعت في الاقل ان اطلب منهم سيجارة ولو بدفع الفلوس».

كانت الاهواز كدزفول تتلوى تحت ضربات الزوابع الترابية حيث نافورات الغبار تتراقص في الشوارع والساحات. فعند وصول السيارة إلى الجسر المعلق على نهر كارون نظر حتة من بين القضبان إلى خارج السيارة حيث كانت صورة الشمس الشاحبة ترقص في مياه النهر.

سارت السيارة بموازاة النهر وبمسافة شارعين منه متجهة إلى السجن؛ لكن قبل ان تصل إلى السجن اهتزت بعنف حيث اقتلع حتة ومرافقه من مكانهما ولم يستقرا الا بعد ان استخدم السائق المكبح اليدوي. فقد كان الصوت الناجم عن استخدام المكبح واحتكاك الاطارات على ارض الشارع مزعجا ومثيرا لاعصابهم.

قفز الشرطي البدين من وراء المقود بصعوبة إلى الأرض مفتشا الاطارات الاربع ومخاطبا زميله: ماذا بك جالس في مكانك، انزل، فقد انثقب الاطار الامامي.

الشرطي الهزيل فتح القيد من يده، الذي قيد به يدي حتة، قائلا:

- كنا محظوظين!

بقى حتة وحده جالسا في السيارة. «حان الوقت كي اقوم بعمل ما، الفرصة مواتية».

كان الشرطي البدين يلهث والعرق يتصبب من كل انحاء جسمه. كما ان الزوابع الترابية كانت تحول دون عمل الشرطيين لسحب الاطار المثقوب. وعندما كان الشرطي الهزيل يهم ليضع بعض الحجر امام الاطار لاعنا الشيطان الرجيم، سأل الشرطي البدين زميله بعيد لحظات من الحيرة:

- لماذا لانستنجد بهذا السجين القوي البنية؟

- جيد، انا معاك.

ناديا وبصوت واحد، حتة لينزل ويساعدهما. تركزت عيناه على البندقيتين الموضوعتين على بعد مترين منهما. الشرطي الهزيل كان متربعا على الأرض، يلف سيجارته والاخر منهمكا بالاطار المثقوب.

- لف لي سيجارة أيضاً كما تلف لنفسك.

قالها الشرطي البدين مدمدما:

- كان يجب ان يبعثوا معنا شرطيا آخر.

وقد تفاجأ الشرطي الهزيل بالركلات التي جاءت من

ركبة حتة عندما كان يضع السيجارتين في فمه ليشعلهما. وتتالت الركلات لتشمل الشرطي البدين حيث اصابه حتة اصابة خطرة في خاصرته اليمنى. فقد اخذا يلتويان من الوجع حيث لاذ حتة بالفرار مسرعا، لافا في اول زقاق واجهه ومن ثم إلى شارع عريض. وعند رؤيته لفتحة حديدية لبالوعة مفتوحة على رصيف الشارع دخل منها واغلقها، حابسا انفاسه في صدره.

بعد دقائق استعاد الشرطيان حالتهما الطبيعية. وبقى الشرطي الهزيل يحافظ على السيارة وراح الاخر يبحث عن حتة يجرجر جسده الضخم ببط. وقد اخذ الظلام يخيم على المدينة وقلب حتة يدق بسرعة اكبر حيث قال لنفسه:«لم يختلف شي بالنسبة لي، فحكم الاعدام الصادر لاينقص ولايزود». اخذ يشعر بالاذى من الرائحة النتنة في شبكة المجارير.

– الثأر الثأر، عليّ ان انتقم من نظام السلطنة. ارجو من الله ان يبقيني حيا.

كان احيانا يسمع جزامي الشرطة وهي تمشي فوق شبكة المجاري تبحث عنه في تلك المنطقة. يصفر البعض

ويركض البعض الاخر من جهة إلى أُخرى. لعلها لم تكن اصوات جزامي بل اصوات احذية للذين يمرون كل يوم من ذلك المكان. سمع خشخشة ما، متصورا بان الشرطة كشفوا مخبئه. اقشعر جلده اثر تصوره القاءهم القبض عليه مرة أُخرى.

كان مرتبكا ولم ير بدا الا وان يسلي نفسه بشكل أو آخر. «يبدو ان هؤلاء الشرطة الجبناء قد هربوا»؛ قال في قرارة نفسه. فقد كانت رائحة الامونيوم النتنة والسامة تعذبه وتسمم روحه. «عليّ ان ابقى في هذا المستنقع النتن حتى آخر انفاسي». فقد حرك جسده بعض الشيء كي لايشاهده احد من فتحة البالوعة. «ياليت تنجدني هذه الفئران التي هي اصغر من لقمة للافاعي والسحليات، ليقرضن هذا القيد او ياليت يكون هنا أحد يقطع هذه الايدي غير الناجعة لاصبح بلاقيد، فهي لاتفيد بل واصبحت عالة عليّ».

نظر إلى ساعته، كانت العقارب تدور ببطء وتفوح منها رائحة نتنة. اصيب بحالة من الدوار والغثيان؛ تلثم بكوفيته دون جدوى. كان المكان يعج برائحة البيض النتن. صعب عليه التنفس. كان الوقت يداهمه والمكان يضايقه. إذ كانت

الافاعي والجرذان تصول وتجول دون منازع. لم يتمكن من تمديد رجليه الطوال. كان يجلس القرفصاء حينا ويتربع حينا آخر؛ ويغالب النوم والتعب كي لا يفاجئه عقرب أو حشرة سامة أُخرى او يدهس رأس حية مختبئة بين الاوحال. كان يعلم ان الافاعي السامة الخاصة بالمناطق الحارة تلجأ بكثرة في مثل هذا الموسم إلى البالوعات الباردة هروبا من رمال السواحل الحارة للنهر.

كان الدود الصغار والكبار يرتع بين الاوحال؛ والصراصير الملطخة بغائط الآدمي تسعى، مرتبكة من ولوج موجود غريب إلى عالمها الوحلي. فقد اضطرب هدوءها اثر ولوج ابن آدم الي هذا العالم الآسن. فكأنك قذفت بحجر في بركة ماء ساكن.

اخذ حتة يشعر بانه ليس انسانا بل صرصارا واهنا اعزلا في هذا المستنقع النتن. مضت ثلاث ساعات او اكثر. الصمت كان سيد الموقف. «اذهب ام ابقى؟ فاذا لم اخرج قبل الفجر وقبل ارتفاع الحرارة في النهار سأموت تسمما او اثر لدغة احدى هذه الحشرات والافاعي. فاذا غامرت وخرجت من البالوعة سيعدمونني على رافعة اثقال او فوق حافلة صغيرة في

نفس المكان». أطل برأسه من الفتحة حيث ملأت الرياح الرطبة الوافدة من نهر كارون رئتيه. ارتسم «الشط» في ذهنه عريضا مهيبا رافدا.

«فاذا رافقني الحظ وبلغت شط كارون لااستبعد الغرق بين امواج النهر المتلاطمة؛ فعلى أي حال، ان الموت ينتظرني. فقد اغلقوا على حتى طريق الانتحار. فماذا يمكن ان افعل بهذين اليدين المكبلتين؟ فلم يبقى لي الا وان ضرب رأسي بهذا الجدار الاسمنتي.اي جدار هذا؟ ملطخ بالقذارة والوحول. آه! انني لم ارُد هذه الحالة، فهم الذين ساقوني الي هذا الطريق الوحل».

اقترب الوقت إلى منتصف الليل. اصغى الي الشارع، فلم يسمع الا صرير الفئران والجرذان السمينة التي كانت تسعى في اطرافه. لم يوجد احد في تلك الساعة المتأخرة من الليل. صمت وهدوء وسكوت.

تخيل كم هو طويل الزقاق الذي يصل الشارع إلى ضفة النهر؛ طول الوقت الذي قضاه في ذلك المكان الآسن. نزع الكوفية الملفوفة على عنقه متلثما بها لعله يتخلص من الروائح النتنة.

«اذهب ام لا؟ فاذا شئت الذهاب علي ان اركض حتى ضفة النهر بنفس واحد؛ يكفي ان ابلغ الضفة المرتفعة للنهر لأختفي وراء السواتر الترابية. لكن من المحتمل ان ترصدني عناصر الشرطة؛ فهؤلاء عديمو الشرف لم يوقفوا اعمالهم ولم يسمحوا لصيد ثمين مثلي ان يهرب من ايديهم. لا، الخروج من المستنقع هو الجنون بعينه، كما ان البقاء يعني الموت والفناء. اذن ما هو الحل؟ ياالهي انني لااريد الموت في هذا المستنقع».

النهر كان يغويه. فقد خمن المسافة بينه وبين النهر: «يجب الا يكون بعيدا، فهي نحو خمسين إلى ثمانين مترا. وبما ان كل الطرق مغلقة بوجهي، لابد لي وان اسيرعن طريق شبكة المجاري مع المياه الآسنة واتجاوز كل الصراصير والحشرات والافاعي لأصل إلى مياه النهر العذبة».

انطلق حاني الظهر بخطوات محتاطة حيث تلوثت ازياؤه وحذاؤه ويداه وقدماه بالقذارة والوحول؛ شعر بانشطار جسده اثر الانحناء المستمر؛ وصعب عليه التنفس حيث شعر بالاختناق وسط الطريق، غير ان نسيما من النهر لامس عينيه بعد خطوات قام بها. كادت عيناه تتعود على الظلمة

حين شاهد النور والنهر معا. كان النسيم نذيرا بانتهاء الشبكة المظلمة. شاهد لمعانا يضي من عيني قطة كانت تتربص للفئران عند مصب الشبكة إلى النهر، حيث هربت بعد ان شاهدت حتة خارجا منها.

تنفس الصعداء شاكرا ربه راكضا بنفس واحد من المصب حتى النهر. فلم يثر حذاؤه اي صوت على الرمال الساحلية للنهر التي كانت لاتزال ساخنة. فقبل ان يدخل المياه، جثا على الرمال، كالعابد الذي يسجد امام النهر والنجوم المتلألأة في السماء. نظر إلى كل الجهات، مد قدميه، ثم انبطح محدقا في السماء الاهوازي الاحمر اللون كعادته. العطش كاد ان يقتله. النجوم كانت تتدلى من السماء كعناقيد البلورالشفافة، وشفتاه تلامس قطرات المياه عند ذوبان كل نجمة. تخيل بانه لايوجد اي مكان في العالم نجومه كنجوم الاهواز بيضاء وشفافة. وهذا ما ادى بعبدة النجوم ان يسكنوا هنا بالقرب من النهر. فهُم عشاق المياه والنجوم. فلم يشاهد في ذلك الوقت من الليل شيئا الا ظلال النخيل على مياه النهر، الراقصة كالاشباح فوق امواجه.

«الاحذية تحول دون تحركي» قالها وقام حيث لامست

قدماه المشققتان، الرمال الناعمة. فعند دخوله النهر وحتى أربعة أو خمسة امتار لم يكن بحاجة للسباحة لكنه مارسها بعد ذلك مستخدما رجليه وكتفيه. فاليدان المكبلتان لم تساعداه الا القليل. كان سطح المياه حارا وتحته باردا مريحا لجسده. فعند التعب كان ينبطح على سطح المياء ليرتاح بعض الشيء ليستعد لمواصلة مكافحة الامواج. شعر في لحظة ما بالغرق، رافسا المياه بقدميه شاعرا بنهاية عمره. قال في قرارة نفسه بان هذا النهر الكبير، كارون العظيم، لم يكشف له اسراره بسهولة وكأنه يختبر قوته في مواجهة المحن. فقد نجا من الغرق بسعي وجهد كبير.

كانت الاسماك النافقة في الجزيرة الواقعة في وسط النهر تملأ الليل بروائحها الزفرة. فلم يسكن الجزيرة الا الافاعي والضفادع والكلاب والقطط الوحشية؛ فحتى المهربون الذين كانوا يختفون ليلا بين اشجارها لم يستطيعوا المكوث على سواحلها دون سلاح.

وطأت قدماه الجزيرة بهدوء واحتياط، فانبطح مسترخيا على ساحلها. لابد ان يرتاح لبعض الوقت. لم يبق من الليل الا الهزيع. كان المكان واسعا لكن الوقت ضيق والفرصة

نادرة. فالضفة الأُخرى لم تكن بعيدة في نظره.

«سأستعين بآخر ما لدي من قـوة». دخـل المـياه مـرة أُخرى؛ كان مرهقا؛ تذكراسماك القرش التي تبحث عن دمـاء الإنسان بلهف. كان يخشى اسماك القرش اكثر مـن الغـرق. فلما سبح شوطا، رأى - السـيلو- صـومعة الاهـواز الكـبيرة، شامخة واقفة على الضفة الأُخرى للنهر تبشره بقرب محنته.

وطأت قدماه الأرض. فـرك كـوفيته، مـتلثما بـها مـرة أُخرى. سار بخطوات سريعة من ازقة حي «السيلو» ليصل إلى اول شارع لحـي النـهضة. طـرق بـاب احـد البـيوت؛ مـرتين وثلاث. فكان رنين قيوده التي تضرب بالباب الخشبي تكسر صمت الليل في الاهواز.

- من هو؟

- افتح، انا صديق.

«من هو الذي ضل طريقه في هذا الوقت مـن اللـيل. هل هم المهربون الذين يحملون لنا الشـاي والقـماش مـن البصرة؟ او انه ابني عدنان الذي تأخر علينا الليلة من سهرته في كازينو الخيام».

- جئتك حالا.

انفتح الباب بصرير هادئ. تفاجأ صاحب البيت:

- انت ابوشجاع!؟

- اسكت وافتح الباب فقط.

دخل حتة البيت وتصافح الصديقان بحرارة.

- انت والقيود يا ابا شجاع!؟

الدموع تلألأت في طرف عيني صاحب البيت. قال حتة بشغف وافر:

- لا تسألني عن محنتي.

- من هو الذي تمكن من وضع القيود في معصميك.

- الزمان يا صاحبي!

صحت زوجة صاحب البيت من نومها وبدأت بتحضير الشاي للضيف حتة. كما احضروا له دشداشة بيضاء جديدة. وعندما سحب صاحب البيت مسدسه من جيب دشداشته الكبير، قال حتة:

- المنشار اوجب من كل شي.

ففي فترة تحضير المنشار الخاص بقص الحديد شرب حتة عشرة كؤوس شاي. ومن ثم تم قص القيود بالمنشار. فتأوه حتة قائلا:

- منحتموني الدنيا كلها.

فرد عليه صاحب البيت بهيجان شديد:

- ابوشجاع، انت ضيفنا؛ لو طلبت الروح سنهديك اياها.

- اشكركم ولاازعجكم كثيرا، ارجو فقط ان تستأجروا لي سيارة قبل طلوع الشمس لأذهب إلى مدينتي «الشوش» وسادفع الاجرة انا.

- لاتحكي هذا الكلام يا اباشجاع، ما قيمة الاجرة؟

- هذا هو رجائي.

تركوه ليغفو بضع دقائق ومن ثم ودع صاحب البيت و زوجته.

كانت السيارة من طراز شفروليت ايمبالا تلتهم الطريق وهي عادة تستخدم في عمليات التهريب. في وسط الطريق طلب حتة من السائق ان يذهب إلى قرية لم تبعد كثيرا عن الطريق الرئيسي.

غادر حتة السيارة لكنه سرعان ما عاد ومعه شاجور مخبأ تحت دشداشته قائلا للسائق:

- جيد لنذهب الان. لكن و قبل وصولنا مدينة الشوش يجب التوقف عند الفندق السياحي في بوابة المدينة.

- حاضر، قال السائق.

دخل حتة الفندق و سار باتجاه الصندوق. تفاجأ المدير مرتبكا عندما رأى حتة وبيده مسدس. قال متمتما:

- ح.. تة انا في خدمتك؛ فالأمر أمرك، أرجو الاتقتلني.

- لن اقتلك، اريد منك ثلاثة الاف تومان فقط.

قال المدير وجسمه يرتعش:

- حاضر.

لكن الحذار من الصراخ؛ فانت تعرفني جيدا.

استلم حتة المال و عاد إلى السيارة قاصدا مدينته.

اصبح حتة الان طليقا حرا، يصول و يجول في غابات الشوش من جهة و اهوار و احراش الحويزة من جهة أُخرى. فترة هنا وفترة أُخرى هناك. فقد اكتملت مجموعته.

في احد الايام خاطبه احد عناصر مجموعته مازحا:

- كيف تستهدف الطير وهو طائر في الهواء ونـحن لم نستطع فعل ذلك مهما حاولنا؛ ماهو السر قائدي حاتم! انـني مهما حاولت يوم امس لم استطع استهداف طائر كـان يـطير في الغابة.

ايده زميله:

- يكمن السر هنا، في قتله لعشرين ضابطا و رجل امن.

انفتحت اسارير وجه حتة باديا بانه يؤيد كلامهما:

- انا واثق بانني سأقتل قاتلي بيدي. فعدوي اصبح ليس نظام السلطنة فقط، بل جميع القوات المسلحة الشاهنشاهية.

لم يبرح الصف يبدأ اعماله حين نادى احد عناصر المجموعة القائد حاتم:

- شخص ما، يريد لقاءك، جاء لتوه من مدينة الاهواز.

حدق حتة في سحنته المغبرة وعرفه بعد هنيهة. قاطع طريق، كان من عناصره قبل ان يتحول حتة نفسه من قاطع طريق إلى سياسي ثوري. اختلى به متسائلا بعد المصافحة:

- ماذا تفعل هنا؟

- رغبت كثيرا للقائك.

- هل تعرف كم حفنة من السنين ونحن لم نلتق. قل لي اين كنت و كيف وصلت إلى هنا.

- إذا تعدني بالا تقتلني سأشرح لك كل شي.

- لماذا اقتلك؟ انت ضيفنا.

- في الحقيقة انني احمل لك رسالة.

- رسالة؟ من أين؟

- من المسؤولين الايرانيين الكبار.

- المسؤولين الكبار!؟ ماذا يريد هؤلاء منا؟ فقد صادروا اراضينا و دمروا حياتنا؛ ماذا يريدون منا بعد كل ذلك؟ حيث انني قررت ان احاربهم حتى النهاية.

- هل تريد ان تصبح شيخ عشيرة؟

- شيخ عشيرة ؟ اي عشيرة؟

-شيخ قبيلة كعب و كنانة. فالمسؤولون الايرانيون مستعدون ان ينصبوك شيخا على عشائر مناطق الشوش و الفكة و دزفول.

- جيد! من هو الذي ارسلك؟

- محافظ الاهواز وقوات الامن؛ الاستخبارات (السافاك) أيضاً على علم بالموضوع؛ الاوامر جاءت من الشاه مباشرة.

حتة لم يستغرب الامر ولربما كان يتوقعه. فبعد دقائق من الاستشارة مع رفاقه عاد ليقول للموفد:

- اذهب و قل لهم بانا مستعدون لتسليم انفسنا للحكومة بعد اربعة ايام؛ هناك في المضيق البري بين

المستنقع و الصحراء الرملية؛ تحت النخيل بالدقة؛ شريطة الا يكون معنا و معكم اي سلاح.

كان ضربان قلبه يرتفع باقتراب موعد اللقاء. شعر بان قلبه ينتزع من داخل صدره و يطير فوق الصحاري الرملية الحارة. لم تفصله من مكان المفاوضات مع موفدي الحكومة الايرانية الا عشرون دقيقة. كان يرى قلبه كباز وحشي جالسا فوق قمة «الله اكبر».

كان قلبه يهبط في الحدود بين المياه و الصحاري ليشفي غليله. إذ كان رفاقه قد شاهدوا هذا القلب البسيط الحميم السخي في هندام طويل ذو كتفين عريضين و عينين واسعتين خضراوين بلون مياه الهور.

كان رفاق حتة ينقسمون إلى مجموعتين: الاولى تتشكل من خمسة اشخاص وهم يرتدون الزي العسكري الكاكي، حيث كانوا يخبئون رشاشاتهم تحت قمصانهم، وهي من طراز كلاشينكوف صغيرة. كما كانت المجموعة الثانية تتشكل أيضاً من خمسة اشخاص يختبئون في الاحراش القريبة من مكان المفاوضات. فقد قرر حتة بان تقوم المجموعة الثانية بدور مساند للمجموعة الاولى بعيدا عن

عيون رجال الامن ولتتحرك وراءها من مجرى النهر الجاف في القرية كي تتمترس وراء السواتر الترابية الواقعة على ضفة النهر. وقد حدد حتة كلمة رمز لتكون مؤشرا لبدء اطلاق النار.

انتظر حتة و رفاقه القائد العسكري للمنطقة النقيب خرم تحت ظلال النخيل. لكن بعد ساعة و بضع دقائق من انقضاء الموعد فوجئوا بمجي قائد مخفر القرية و معه عشرة من المرافقين العسكريين.

- اذن اين النقيب خرم؟

كرروا السؤال مرتين و ثلاث. فكان الرد بانه لم يصل بعد من مدينة دزفول. فقد ساور الشك حتة. وسرعان ما جاءهم الطعام من مخفر القرية بعد ان جلسوا على الطاولة لتناول الغداء.

طلب قائد المخفر من حتة تناول الطعام، لكنه رفض طالبا رجال الامن البدء في ذلك. فقد امتثلوا له.

وبعيدا عن ذلك المكان، كان النقيب خرم و الضابط المساعد له و مختار القرية و موفد جهاز الاستخبارات (السافاك) ينتظرون حتة بفارغ الصبر.

تساءل موفد السافاك الذي لم تفارق يده المسدس منذ

مغادرته مدينة دزفول مرتبكا:

- ماذا نفعل إذا كانوا مسلحين؟

- لم يستطيعوا ان يحركوا ساكنا؛ فانني ساعتقل حتة و سأسلمه مكبلا إلى الشاهنشاه؛ انني لم ارض حتى باغتياله بل يجب ان نقبض عليه حيا.

لمس المختار الذي كان صامتا حتى تلك اللحظة لحيته البيضاء قائلا:

- صحيح اننا هنا غلمان للشاه في هذه المنطقة النائية لكننا يجب ان نعترف بان هناك سمعة واسعة و شعبية مرتفعة لحتة في اقليم الاهواز وذلك اثر تصديه لرجال الامن و العسكريين واغتيال العديد منهم؛ قبل ايام و عندما كنت في بيت صديقي في مدينة دزفول، سمعت صاحب البيت يخوف طفله المشاكس من حتة؛ ويقال ان العديد من العرب اطلقوا اسم حتة على اطفالهم في مدن الاهواز و الحويزة و بني طرف و مناطق أُخرى من المحافظة.

فرد النقيب خرم مستهزئا:

- هذه دعايات اعداء الوطن والشاه يا مختار. من هو حتة؟ انني مرغت انوف العديد من متمردي اقليم لورستان في

التراب. فمن هو هذا العربي..

قطع الختيار كلامه قائلا:

- هيا انهم وصلوا فعلا.

وقد تمترس عدد من رجال الامن الذين اتوا مبكرا على سطح المدرسة و اطرافها. كما تخندقت المجموعة الثانية من رفاق حتة في المكان المقرر بمسافة بضعة امتار من باب المدرسة. واخذ قائد المخفر يرافق حتة و رفاقه الاربعة. فعندما رأى حتة النقيب خرم عرفه حيث كان قبل اعوام سجانه في احد السجون. النقيب أيضاً عرفه ومسك بيده اليسرى المسدس الذي كان بيده اليمنى و صافح حتة بحرارة.

فقد اندهش رجال الامن عند رؤيتهم لهذه المصافحة و اخذوا يتهامسون فيما بينهم. كان النقيب خرم يمسك بمسدسه بكل قوة و يصر على حتة و رفاقه بالتقدم في الدخول إلى المدرسة. كان المختار يلعب دور المترجم حيث كان حتة لم يعرف الفارسية.

قال حتة:

- ليس من الادب ان ندخل نحن قبل كبار حكومتنا.

وكان الاصرار من النقيب خرم مرة أُخرى:

- انتم ضيوفنا، فارجوا ان تتفضلوا قبلنا.

وقد نأى رفاق حتة بانفسهم بعض الشيء عند رؤيتهم لهذه المجاملات. إذ صاح حتة و بصوت عال:

- تفضلوا

هذا كان مؤشرا لاطلاق النار من قبل رفاقه حيث تفاجأ الجميع. إذ تساقط المستقبلون كاوراق الشجر في الخريف. التحق حتة و رفاقه بالمجموعة المساندة بسرعة وهم يتوارون وراء السواتر الترابية للنهر خارجين من القرية. كان ذلك صدمة لرجال الامن حيث لم يثمر اطلاقهم النيران شيئا. كان اسم حتة يذكرهم بكوابيس مريعة. إذ لم يتجرأوا الخروج من المدرسة.

انتشر الخبر في كل انحاء إيران كالنار في الهشيم، ليصل إلى مسامع الشاه محمدرضا البهلوي.

فعام بعد عام كان حتة يألف الحياة اكثر فاكثر مع المياه و الصحاري و النيران. كان يعرف الاهوار و الرمال و التلال في غرب الاهواز كمعرفته بكف يده. وكانت له حكايات سمر مع مرتفعات «المشداخ» و «الله اكبر» و احراش اهوار العظيم و الحويزة حيث كان يهيم بناي الرعيان في الاماسي ويتعلم

الابجدية في ضوء الفانوس الباهت. كما كان احيانا يركب حصانه الجميل السريع ليصل مسقط رأسه على اثر اجراس الماعز و يعود آخر الليل بعد ان يزور اخوانه و يقبل امه العجوز.

كان جالسا القرفصاء تلك الليلة، في نفس المكان الذي كان يستريح فيه بعد اي عمليات يقوم بها و آخرها كانت تلك التي ادت إلى اغتيال النقيب خرم و مرافقيه. اراد ان يلف سيجارة حيث كان مضطربا لعمليات يوم غد. تمشى ومن ثم عاد إلى مكانه وجلس. رأى ضفدعين يتغازلان في عتمة الليل بين القصب. امسك بعلبة التنباك و اشعل سيجارة. كان الليل يرسب كالزيت على الصحراء المحترقة من شمس النهار. فقد تذكر زوجته الاولى: «يا بنت عمي البائسة! تبا لذلك الزواج الاجباري. كم كان اصرار والدي لأتزوجها وانا في السادسة عشرة من عمري. كنت يافعا عندما قيدوني بها وهي تشبه العجائز حاليا. لكن فوزية انت من عالم آخر. عيونك تشبه عيون الريم و وجهك ابيض جميل. كم كانت ايامنا حلوة! فلم يكن لشمس الجنوب اي اثر على هندامك الرشيق. اتمنى بالا تفهم بانني متزوج من تلك الجيفة».

كادت السيجارة ان تنتهي عندما شعر بصوت فوزية يدوي في اذنيه. كان ذلك قبل اربعة اشهر، عندما تشاجرت فوزية مع احدى نساء القرية وكأن الامر حدث يوم امس.

- اذهبي من هنا يا مادام، اننا نعرفك جيدا.

احمر وجه فوزية، فقالت:

- ابناء القرية يعرفونني جميعا.

- نعم يعرفونك و يعلمون..

- قولي، إذا لم تخافي قولي ماتشاءين.

- لاتجبريني ان احكي كل شي.

- انني نزيهة و لااخاف من كلام احد.

- فاذا لم يعرفك احد فانني اعلم بان هناك علاقات بينك و بين حتة.

فقد اشقعر جلد فوزية حيث شعرت بتجمد الدماء في جسدها. فلم يعرف حتة نفسه كيف كان موجودا هناك و كيف شاهد ذلك المشهد الذي يشغل ذهنه حاليا. فقد تذكر بان المرأة تلك اقسمته بالرسول كي يعترف بانه يعرف تلك الفتاة ام ينفي ذلك.

- والله و بالله لم اعرفها.

- أُقسم بالامام الحسين أيضاً بانك لم تعرفها.

- اقسم بالامام الحسين بانني لم اعرفها ابدا.

- انني لم اقتنع، لان الكثيرين من اهالي القرية شاهدوكم سويا. لكن إذا تقسم مرة أُخرى ستزيد من ثقتي بكلامك.

- لابأس.

- أُقسم بالعباس بانك لم تعرفها.

- اقسم بابوفاضل العباس بانني احب فوزية.

فقد كادت الفتاة تذوب من الخجل؛ فلم تكن تعرف بان حتة يخشى العباس اكثر من الله والرسول.

نام حتة في تلك الليلة ليصحو فجرا.

- هيا يا رفاق علينا ان نذهب قبل طلوع الشمس إلى مخفر «هفتبه».

كان صوته الرصين في زلال الفجر يتقاطع مع مياه الهور الزرقاء ليتحول إلى امواج تنتشر في الاهوار. قال مرة أُخرى:

- انهضوا يارفاق كي نصل «هفتبه» مساء. الوقت ملائم و الخطة هي مصادرة السلاح من المخفر.

فقد وضعوا القوري المطلى بالدخان الاسود على الموقد و احضروا الفطور من القرية: الزبدة و خبز محليين.

- توكلوا على الله لنذهب، اسرعوا.

قالها حتة بتهكم.

كانت المجموعة تضم ستة اشخاص؛ اثنان منهم كانا يسيران في آخر المجموعة. فقد انضم هرموش قبل ستة اشهر و هاشم - عم هرموش- قبل شهرين إلى مجموعة حتة. كان حتة و شقيقه الاصغر في المقدمة و قيس و ناصر وهما من زملاء حتة القدماء في الوسط. فكانت المسافات بينهم تزيد و تقل؛ و نيران شمس الاهواز الحارقة تقذف بحممها على رؤوسهم دون رحمة، حيث اضطر الرجال ان يتلثموا بكوفياتهم؛ و لم يبق لهم عضو مكشوف امام الشمس الا عيونهم. لم تكن لديهم قطرة ماء حيث اخذ العطش ينهش باجسادهم. فقد تراءت لهم اشباح تشبه قطعان الماشية. فلما تقربوا منها سأل حتة الراعي عن بئر ماء. فدلّهم الراعي على ذلك. فسأله حتة:

- هل فيه ماء؟

- نعم.

- قابل للشرب؟

- نعم، لكن الناس تقول ان رجال الامن قاموا بتسميم جميع الآبار في هذه المنطقة.

- لماذا؟

- لم اعرف، لكن يقال انهم يريدون اغتيال حتة.

- من هو حتة؟

- متمرد، قتل العديد من رجال الامن.

حدق حتة في البئر؛ لم يكن عميقا حيث شاهد المياه فيه؛ فقد امعن اكثر؛ شاهد حشرات صغيرة تعوم على سطح الماء.

- اشربوا من الماء؛ فانه ليس بمسموم.

قالها حتة بحسم. حيث ارتووا جميعا و من ثم تابعوا طريقهم. إذ شاهدوا في منتصف الطريق فارسين يقتربان لهم وهما يحملان سجادتين مشدودتين على حصانيهما. عرف المهربون حتة.

- سلام ابوشجاع.

- عليكم السلام، إلى أين ذاهبان؟

- للعراق، لنبيع هاتين السجادتين.

ساوره الشك: «فهل اسمح لهم السير بحرية في هذه الصحراء القائضة حيث لااستبعد ان يوشيا بنا؛ وإذا قررنا ان نراقبهما فعلينا ان نلغي العمليات». لكنه اتخذ قراره النهائي:

– قيدوا ايديهما و ارجلهما؛ وانتما قيس و ناصر عليكما ان تسيرا بسرعة قبلنا لتبلغا ختيارنا خضر ليقرر لنا ماذا نفعل بهما. فقد ركب الاثنان حصانيهما و سارا بسرعة إلى مقر القيادة حيث سار الباقون وراءهم مشيا على الاقدام. فقد وصلت المجموعة عند غروب الشمس إلى الأهوار حيث كان عليهم الانتظار حتى الفجر ليعود الفارسان من عند القائد خضر.

كان حتة وكعادته يمسك بمسدسه بيده عند المشي بين الاحراش. كان مبهورا بغروب الشمس في الاهوار. كانت قطرات الدم تقطر من عيون الشمس عليها و تصبغها باللون الارجواني. شقيق حتة كان يحرس المكان و المهربان مقيدان جالسان، و هاشم وهرموش يتهامسان في مسافة ليست بعيدة عن المكان. كان حتة يحدق في نهر المساء الجاري في مستنقع الليل و شقيقه منهك و متدثر في عباءته حيث كاد ان يغفو من شدة التعب.

فجأة ارتفع صوت الرصاص محطما سكوت الليل. فقد اصابت زخات الرصاص شقيق حتة و اردته قتيلا. وقد وسع هرموش من دائرة سلاحه، لكن حتة و كأنه لم ينو ان يموت.

«انني سأقتل قاتلي بيدي»؛ فقد برقت العبارة هذه بسرعة على بال هرموش حيث رجفت يداه و سقط الكلاشينكف منهما على الأرض. فلم يستهدفه حتة الا برصاصة واحدة. فانتهز هاشم الفرصة لكسب الجائزة المقررة لرأس حتة، غيرعابه بعمه المضرج بالدماء.

فعندما عاد الموفدان فجرا إلى المكان شاهدا ستين رصاصة مغروسة في جسم حتة.

طاق كسرى

واقفا على ضفاف دجلة انـظر إلى صـورتي فـي المـاء. تتحرك أمواج هادئة من وسط النهر وتهز صورتي المرسومة على مياه دجلة الزرقاء.

في هذه الظهيرة يمكنك أن ترى حتى ظلال المباني الشاهقة في شارع الرشيد تهتز في المـياه. سـبق وأن أعـلن الرشيد دعوته لكل القصصين في العالم ليـحضروا ليـلة مـن ألف ليلته.

سيكون الاحتفال هذه الليلة في القصر العباسي ببغداد؛

إذ أكدوا لي هنا، إن شهرزاد ستحضر الحفل أيضا وستكون عريفه. أذكر نفسي كي لا أنسى مقابلة الرشيد وبالضبط سيكون أول سؤالي عن سر قتله للنساء. ولو أنني أعرف الجواب مسبقا: «هذه رغبتي».

تشتد الأمواج وتكبر. صورتي تصاب بالخلل. الأمواج العظيمة والرهيبة تتبدل إلى كتب. أعرف منها كتاب «الطواسين» للحلاج وذلك من عنوانه الأحمر. أمد يدي في الماء كي أتناوله لكنني لم استطع. أصبح النهر ـ أينما ترى العين ـ كله كتب. بإمكاني الآن أن أرى على أغلفتها جروح كونتها حراب جيوش هولاكو المغولي. سبحان الله، كل الأغلفة مثقوبة والثقوب تشبه حراشف السمك.

أشعر بظل ثقيل ينهمر عليّ من وراء رأسي. الظل يحجب صورتي المهزوزة في الماء. لا أرى أثرا لصورتي في الماء. يقول لي الظل:

– دعنا نذهب. الحافلة ستصل بعد قليل.

الحافلة قد وصلت بالفعل في الموعد المحدد. لكنني لا أرغب أن أترك هذا النهر الهادر. أعرف أن الإصرار لا ينفع مع الظل؛ ولهذا أطلب منه:

- أريد أن أزور ضريح شاعري المفضل وابن مدينتي.

لكنه يرد عليّ بحسم:

- البرنامج المقرر لا يتغير، بإمكانك أن تزور شارعا باسمه.

الحافلة تنتظرنا. كل الضيوف الإيرانيين سيجتمعون هنا، في شارع أبي نؤاس الأهوازي. تغمرني الروائح: رائحة السمك المشوي و عرق التمر و رائحة الشعر والموسيقى العربية. اسمع ألحان ومقامات عراقية من أصفهان ونهاوند مرتين؛ مرة من المقاهي ومرة منعكسا صداها في المياه الهادرة.

نجلس - أنا والظل - في مطعم وننتظر سائر زملائي الإيرانيين. يصطادون لنا سمكتين طازجتين ويشوونهما حالا. الخبز حار والسمك حار. يجتمع الضيوف تدريجا. الكل يجلسون في الحافلة. يقول الظل للسائق وباللهجة البغدادية:

- نذهب إلى طاق كسرى.

الحافلة تسير. نترك شارع أبي نؤاس وندخل ساحة التحرير ومن هناك إلى شارع الشيخ عمر. مرور مزدحم جدا. ياله من شارع؛ تدبي السيارات كالنمل. أحد الضيوف

الإيرانيين يقول لي:

- المرور في الشيخ عمر يشبه المرور في شارع الخيام في طهران.

الظل يخاطب السائق غاضبا ويقول له (بالعربية):

- هذا الطريق لن يوصلنا إلى طاق كسرى.

أحد الضيوف الإيرانيين يسألني:

- ماذا يقول ؟

- يبدو أن السائق لا يعرف الطريق. فكأنما للوصول إلى ساحة «تجريش» في طهران تأخذك السيارة إلى شارع الخيام بدلا من شارع ولي العصر، هاهو حالنا الآن.

يضحك الإيرانيون. الظل ينزعج. نصف ساعة ونحن ندور حول أنفسنا في مركز العاصمة. يبدو أن السائق والظل لا يعرفان الطريق المؤدي إلى طاق كسرى. يرتبك الجميع.

آه يا دجلة. تندبني مرة أخرى؛ تغمرني تغسلني وتنشفني بمنشفة من نور. كأنني لم أزل واقفا على ضفافها. لا أرى أثرا للكتب الممزقة. لكنني أرى حشود السمك خارجة رؤوسها من المياه، محتجة على عملية شوي لحمها. يخرج أبو نؤاس الأهوازي ديوانه من جيب جبته ويقرأ قصيدة غزلية

للأسماك. سرعان ما تصيبها النشوة وتنام شيئا فشيئا.

السائق يضغط على الفرامل؛ أصحو من غفوتي. الحمدلله لم يحدث أي شي.

الحافلة تتوقف بالقرب من موقف للحافلات في أحد الشوارع. الظل ينزل من السيارة حانقا. بعد لحظات يصعد ومعه شاب طويل وسيم ذوهندام متناسب؛ «سلام عليكم»، «عليكم السلام». يجلس الشاب إلى جانب الظل على الكرسي الأمامي. تسير بنا الحافلة مرة أخرى. الشاب يقول للظل:

- مقصدي قريب جدا من طاق كسرى.

أحد الضيوف يقول بالفارسية:

- ربنا رحيم، أرسل لنا هذا الشاب ليرشدنا. ولولاه لتسكعنا في الشوارع حتى غروب الشمس.

يضحك الشاب البغدادي. يندهش الجميع. كأنهم يريدون أن يسألوا لماذا يضحك الشاب ؟ وبعد صمت وترقب انبرى الشاب قائلا بالفارسية:

- حالتان جطور است (كيف حالكم) ؟

- الفارسية ! كيف تعلمتها ؟ وفي أي مكان ؟

- في طهران
- طهران ! ماذا كنت تعمل ؟
- كنت في طهران لمدة عشر سنوات.
- لا تمزح ياشاب، عشر سنوات ! ماذا كنت تعمل ؟
- كنت أسيرا.

حدق بنا الظل حيث لم يفهم الفارسية. كان حريصا أن يفهم ما نقول.

سألت الشاب بالفارسية:

- في أي معسكر قضيت فترة الاسر؟
- في معسكر «حشمتية» بطهران. عشر سنوات كاملة.
- كيف تعلمت الفارسية ؟
- في المعسكر ولا سيما في المستشفى. وقعت في الأسر وأنا جريح في جبهة « العمارة » ولزمت الفراش في مستشفى تجريش في شمال طهران لمدة شهرين. لا أصدق أنني أرى الإيرانيين مرة أخرى. مضت ثلاث سنوات من إطلاق سراحي. يالها من صدفة عجيبة ؟

يضحك الشاب، ينظر إلى الظل ويقول له:

- لو كنت أعلم أنهم إيرانيين لما ركبت.

سأله أحد الإيرانيون بالفارسية:

- هل تعلمت شيئا في المعسكر ؟

- لا.

- كيف كنت تمضي أوقات الفراغ ؟

- كنت اقرأ الكتب و كانوا يأخذوننا كل يوم تقريبا للصلاة واللطم والعزاء على الإمام الحسين.

الحافلة تنحرف قليلا عن الطريق العام وتتوقف. تنكشف الآن القبب الذهبية حيث تتلألأ تحت أشعة شمس العراق الخريفية.

الشاب يخاطبنا وهو مودعا:

- انظروا ! هناك «سلمان باك» وفيه ضريح الصحابي سلمان الفارسي وبعده بخمسمائة متر طاق كسرى.

الشاب يسرع بخطواته في الطريق الترابي الضيق ويختفي كالظل في الغبار.[١]

---

١ بغداد، نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٩٥ م.

أنا و مطرود و عبود

في الفناء الخلفي

ـ هل تعرفني باسمك ؟

– مطرود

– و من اي عشيرة ؟

– من بيت صلبوخ

– و انت ؟

– عبود

و قاطعني مطرود قبل ان اعرف نفسي قـائلا: « عـبود شقيقي».

و عندها حرك رجله المضمدة من الكاحل حتى الاصابع الشبيهة بالتابوت، ثم تساءل:

- إلى اية قبيلة تنتمي انت ؟

كنت ارغب ان اقول «لا فرق لدي» لكنني شعرت بانهم سيتصورون بانني احاول التنصل من الاجابة. لذلك قلت:

- بني خالد

و قد اكمل مطرود جملتي:

- من قبيلة بني تميم

لم يسألوني عن اسمي، لا ادري هل نسوا ذلك او ان اسم القبيلة كان يكفي؛ لكنني اعلم ان كل شخص هنا يعرف من خلال قبيلته.

كنا في الاصائل نجلس في ظل زاوية الفناء الخلفي و ننغمس في الحديث. مرة سألت مطرود:

- ما بها قدمك ؟

- مصدومة

كان يتلكأ في مشيته و يجرجر جسمه الطويل النحيل بصعوبة بالغة و برجل واحدة فقط. الشمس قد خلفت تحت

عينيه و وجنيته اخاديد عميقة، لا يغطيها حتى شعر ذقنه الكثيف. بشرة وجهه التي كانت في يوم من الايام سمراء فاتحة تحولت إلى لون الفحم. و قد شاهدت هذا التفاوت عندما شمر عن ساعديه استعدادا للوضوء.

رفع اكمام «دشداشته» إلى الاعلى و فتح الضمادة التي كانت على جرحه قائلا: والدي أيضاًكان يعاني من مثل هذا الجرح، الوجع يضرب في قلبي ويسهرني طول الليل.

في الحقيقة اصبت بالدهشة عندما رأيت الجرح المندمل وكانه بئر عميق بفوهة مفتوحة.

في البئر

كانت فوهة البئر مفتوحة، و قد استعدت للحياة بعد ان سطعت اشعة الضوء من الفوهة؛ كنت قلقا جدا. لملمت اذيالي وحدقت في الفوهة المفتوحة. كنت ارى اشباحا تمر من جوار تلك الفتحة تشبه ظلال الغيوم التائهة لكنها لم تكن غيوم و لا ظلال غيوم. لقد عرفت ذلك عندما عدت إلى هذا البئر الموحش. كان الليل في هزيعه الاول و كل شئ يتجه نحو الظلام؛ جاء صوت من الاعلى قائلا بالفارسية:

- اطفئ النور

أطفأت النور لكنني كلما حاولت النوم فلم استطع. كان بئرا نتنا رطبا لا يوجد فيه قطرة ماء. شعرت بصدى ذلك الصوت و هو لا يزال يدوي في البئر «اطفئ الضوء اطفئ...» و حتى عندما كنت اغالب نومي كنت استيقظ فجأة. و في احدى اليقظات رأيت من خلال فوهة البئر شيئا يبرق. تصورت ان كل شئ قد انتهى، فما قيمة الحياة داخل هذه الاسطوانة الخانقة؟

لماذا كل هذا العناء و العذاب ؟ آه ! ياليت لو كان والدي يعرف اين انا وفي اي حال ؟!. لا اتأمل مرور اي قافلة؛ لقد خابت آمالي من هذه الحياة؛ لا امل لي الا مرور قافلة بالمصادفة لينظر احدا منهم في البئر ليرى يوسف و يبلغ الامر إلى يعقوب.

في الفناء الخلفي

رفع كوفيته البالية إلى الوراء فبانت مقدمة جبهته، لم يوجد شعرا كثيرا على رأسه و اخذت صلعته تشع تحت شعاع الضوء. و عندما انتهى من الوضوء قلت له «مطرود، وضوءك

باطل »؛ كان يضمد جرحه بقطعة من القماش. فتساءل كالمصعوق:

- ها، لماذا ؟

- لانه كان عليك ان تمسح باصابع يدك اليسرى على قدمك اليسرى من اطراف الاصابع حتى مفصل القدم.

- ان قدمي مصدومة؛ الم تشاهد هذا البئر الملي بالقيح و الاوساخ، كيف استطيع ان امسح عليه، ساتألم و سأتنجس.

- على كل حال طريقة الوضوء غير شرعية.

تحرك قليلا من مكانه، مد رجله اليمنى جالسا. اراد ان يدخن سيجارة؛ بحث عن علبة تبغه فلم يجدها في جيوب «دشداشته»؛ مرة أُخرى فتش في جيوبه فلم يجدها، فبحث عنها في جيب «سترته» فوجدها هناك. لف سيجارة لنفسه و لف أُخرى لعبود و لم يتقدم بسيجارة لي، ظنا منه بانني لم ادخن سيجارة «اللف ». سحب عبود نفسا عميقا من سيجارته، كان في حالة تشبه الانجذاب. سألني مطرود:

- هل تقصد بان وضوئي باطل ؟

هزيت رأسي تاييدا لما قلت، وقبل ان اسأله «لماذا مسحت قدمك من كفها» سألني: هل تعرف

زيدان ابن زاير سالم؟

صمت برهة حتى اتذكر من هو زيدان هذا. نعم، زيدان الذي كان زميلي في المدرسة و تركها و هو في الصف الخامس الابتدائي و سافر إلى الكويت.

- نعم نعم اعرفه.

- هو الذي اوصلني إلى هذه الحالة. لقد ضيع عليّ عباداتي لسنتين كاملتين. هو الذي يتحمل الذنوب؛ كنت قادما من القرية لشراء بعض حوائج البيت من سوق «الحميدية». فعندما رأيته هناك قلت لنفسي: هذا هو الوحيد الذي يستطيع حل مشكلتي، لانني و قبل سنوات كنت قد زرته في بيته و وجدت فيه مجموعة من الكتب التي لا يوجد منها في قريتنا حتى كتاب واحد. تصورت بانه يستطيع حل مشكلتي، لكنك الان بددت كل شيء.

اتم مطرود سيجارته حتى النصف؛ شعرت و كأن نارها تحرق يدي، وصلت النار إلى وسط اصابعه الا انه يبدو لا يحس بذلك او النار لاتؤثر على بشرته القاسية.

سألني عبود: هل ممكن ان تأم جماعتنا للصلاة ؟
قلت له: لا، لانني لست مؤهلا لذلك.

ظهرت ملامح الدهشة على وجهه حيث يبدو ان جوابي قد ازعجه.

لا ادري كيف انجذبت نحو مطرود و عبود، لربما مللت من اصدقائي المهندسين الفرس او لان النقاوة و البساطة الريفية مترسخة في وجودهما. انهم يختلفون مع المهندسين.

كنت اسهر الليالي مع عبود و مطرود و العب معهم العابا شعبية محلية او انهم كانوا يلقون على مسامعي المناظرة الشعرية بين الشاي و القهوة. فعندها كان عبود يمثل دور الشاي بينما يمثل مطرود دور القهوة؛ فبالنسبة لمطرود كان ذلك اسما على مسمى لانه و ببشرته القاتمة و لحيته البيضاء القصيرة التي تشبه سبخة الاراضي المحروقة قد رسخ هذا الدور في ذهني.كنت اتصور ان كل من يقبل مطرود سوف يشعر بطعم المرارة اما عبود كان اكثر شبابا لكن وجهه كان شاحبا يشبه لون الشاي الخفيف. فيقول عبود:

- انا شاي الحلو نزهة مواعيني، شاهات العجم و ملوك تجنيني

فيرد عليه مطرود بصوت مرتفع غير موزون تنعكس فيه خشخشات صدره:

- انا بنت اليمن و ربات حاتم طي، من بـيت الكـرم و الجود واهل الزي.

في البئر

تلك الليلة كانت مملة و طويلة؛ مرة أُخرى بقيت وحيدا لانهم ابعدوني عن مطرود و عبود. لم استطع النوم في ذلك البئر الملعون و الذي لايوجد فيه الا منفذا وحيدا هو نقبه؛ و السبب هو الانين الذي يصدر من البئر المجاور لبئري. صوت مؤلم ينم عن اليأس و الاحباط اخذ يجعلني استيقظ مرعوبا في كل لحظة.

- اللهم اني عبدك الذليل.

يقول ذلك و يغط بالصمت مـرة أُخـرى؛ الا انـه ليس صمتا. كنت اظن ان جاري يتمتم و يحدث نـفسه ثـم يـعود لقراءة دعائه بخشوع و خنوع و بصوت مرتفع. ماذا بوسعك ان تفعل ؟ هناك شبح يخيم على فوهة البئر و هو يضرب قطعتي حديد بعضها بالبعض، حيث الصوت يصم الآذان. ماذا بوسعك ان تفعل؟ مرات تقول لنفسك ليحدث مـا يـحدث؛ عـليّ ان ابقى في نفق الكـابة هـذا لإحـافظ عـلى نـاصيتي مـن كـل

خفافيش الليل في هذه المغارة المظلمة. حالة تشبه امواج البحر الهائج تسيطر على كيانك و هي تقذفك بهذا الاتجاه او ذاك؛ امواج ترفع الروح إلى الاعلى و الاسفل، تقلبك رأسا على عقب؛ فتشعر في كل لحظة بانك فريسة لهذه الامواج و لن تستطيع ان تصمد و تقاوم الاختناق او عليك ان تستسلم إلى قبضتها الموحشة الا إذا كنت سباحا قاهرا. و يا ليت كنت في البحر و لا تكون في هذا البئر المظلم، وحيدا بعيدا عن اسرتك لا علم لديها عنك او حتى انك لم تودع صديقيك الحميمين عبود و مطرود.

نظرت إلى فوهة البئر، ثم نهضت فسمعت شخصا ينادي من فوق:

- اجلس

جلست، لكن صبري نفد من الجلوس. سمعت رنين الحديد مرة أُخرى و عندها رأيت عقربا يتسلق جدار البئر. ليس لدي وسيلة للقضاء عليه؛ ليس عقربا واحدا بل تحول إلى عدة عقارب كلها سوداء صغيرة.خلعت جوربي و لففته على قبضة يدي و ضربت احدالعقارب بقوة. الا انني لم اصبه، حاولت مرة أُخرى؛ الا انني اخطأته أيضاً؛ العقارب تتسلق

جدار البئر ذهابا و ايابا. تصورت لربما هذه العقارب تسكن في حدقة عيني و هي تخرج منها و تدب على جدران البئر. و قد انمحت تماما عندما سطعت اشعة الشمس عليّ.

في الفناء الخلفي

حتى اتأقلم مع الهواء النقي لابد من فترة زمنية. مطرود و عبود و عدد من العرب الذين يعتمرون الكوفيات و يلبسون الدشاديش كانوا يثرثرون ويتناولون العنب والبلح. ذهبت إليهم؛ تناول مطرود براد الشاي الذي جاءهم من الخارج و وضعه امامه و سقاني كاسا منه. كانت جلستهم توحي و كانهم جالسين في وسط مستنقع «الهور» في الحويزة، يشربون الشاي بعد اصطياد وفرة من السمك. كما و كنت ارى القلق في وجوههم عن المصير المجهول الذي ينتظرهم. لكن يبدو ان قساوة الحياة التي ظهرت اثارها على وجوههم جعلت قضية الموت و الحياة بالنسبة لهم شيئا سويا.

نزع مطرود الضمادة من جرحه القديم لكي يعرضه للهواء. كان جرحا متقيحا، داخله قرمزي اللون و على جدرانه شئ يشبه الزيد الابيض و في اعلى الجرح قيح اخضر اللون.

كان الجرح يلمع و تنعكس منه اشعة قرمزية اللون و كل من كان يمر من هناك ينبهر و ينظر إلى الجرح على مضض، بل وان البعض كان يغمض عينه و يذهب. اشار عبود لمطرود كي يغطي الجرح الا انه لم يفعل.

عندما كانوا ينقلونني إلى هـذا المكـان و انـا مـعصوب العـينين كـنت اعـتقد بـانني لوحـدي، و للـحظات فـقدت الاحساس باي شي. لم اشاهد من قبل هذا العدد الكبير من الناس في هذه الباحة الصغيرة. كنت و كإنني شـارد الذهـن، افكر باسرتي، الا ان المرء عندما يكون مع هذا الحشـد مـن البشر لم يشعر بالغربة. يمكنك ان ترى انواع البشر في مثل هذه الامكنة: مهندس، فـلاح، طـالب، عـامل و.. امـا الغـربة فكانت في البئر فقط، اما خارجـه فـيستطيع المـرء اسـتنشاق الهواء.

و بينما كنت افكر بـمصيري وقـع نـظري عـلى جـرح مطرود؛ كان الدم ينزف منه و مع ارتفاع شدة الحـرارة كـانت فتحته تتسع و يخرج منها قيح و دم بشكل مدهش؛ انتابتني حالة من التهوع و اصبت بالغثيان؛ احسست بان الجـرح قـد فتح فمه و ابتلعني. و من ثم لم يبق اثرا للفتحة الضيقة. لم

يسطع الضوء و لم تعد تأتي اية اصوات حتى تلك الاصـوات المزعجة لرنين الحديد، غرقت في الدماء ولم اسمع او ابصر اي شئ؛ كل شئ كان مظلما؛ ظلمة لا نهاية لها و عندما رفع مطرود رجله، شعرت بانهم يرفعونني على ايديهم و يأخذونني إلى مكان ما مجهول.

عيون شربت

عندما دخلنا الخان مع القافلة شعرت بان قدمي وطـئتا ارضا ليست غريبة عليّ، لكن عندما وصلنا جسر الصـراط لم يكن اي من خزنة جهنم مستيقظين من سباتهم. الطقس في الصباح لم يكن حارا و يمكن تحمله.

لماذا غادرت فردوسا مزدهرا زاهيا و جـئت إلى مكـان ينتشي خزنته من رائحة الجسد الآدمـي المشـوي؟ لا يـفعل ذلك حتى المجانين؛ ثم لماذا اصابك القلق، انت الذي غادرت الفردوس الزاهي وجئت إلى جهنم.

عند عبور القافلة من الجسر شاهدت فاطمة الشاكوش و علي فري و جليل الخفاجي وخيرية والعـم يـونس يـقاومون الموت في تلاطم مياه النهر. كان العم يونس ينظر إلى الناس وهو جالس في فم سمك قرش كبير يشبه المظلة. كما كانت خيرية الغجرية تقفز كالدمية المعبئة مـن مكـان إلى مكـان وتعود كل مرة إلى سطح الماء. كان ذلك يماثل رقص الاموات الذي كنت احبه منذ نعومة اظافري. و لو لا ممانعة العم يونس في عهد الحب و الشباب لتزوجت خيرية. كان جليل يعوم بين شعلة النيران كعادته و يغطس في المياه بين الحين و الاخر. اتصور انه كان قد ضرب شرطيا حتى الموت و هرب سـابحا من يد الخزنة.

عبرت جسر الصراط. كنت اعرف مكانا مكث فيه عمر الخيام. إذ كتب على بابه بـخط جـهنمي و عـلى قـطعة مـن قماش: خان اهل جهنم على الأرض. رأيت عددا من الناس جالسين و بينهم درويش جاء مثلي مـن الفـردوس يسـليهم باعمال من الشعوذة. ولجت الخان دون ان اسلم على احـد. الخان كان مضيفا لاحفاد حاتم الطائي في فترة من الفترات، لكن حاليا يملكه جهنمي من اهالي جهنمستان. كان يتحدث

بلغة جهنمية لم اعرفها. اعطوني غرفة مطلة على الشارع، حيث كنت استطيع مشاهدة المارة و المواشي و المركبات والسيارات. ولم يفصل الغرفة من الشرفة الا ستار او زجاج.

فقد اكدوا عليّ بالا افتح الستار او الزجاج طوال النهار وقاية لحرارة الطقس. كنت انظر الوجوه الشاحبة للمارة من شروخ الستار. رأيت مطعما يقدم لرواده اكباد الضفادع و في مطعم آخر قريب له كانت الناس تتناول مرق الزقوم. واحيانا كنت ارى خازنا يعرض يدا مبتورة لأمراة ما. لم يتمكن احد ان ينظر إلى السماء حيث كان يصاب بالعمى اثر شرار النار الملتهبة. إذ كان الناس يسيرون على نهج مستقيم ورؤوسهم هابطة. احيانا كانوا يبتاعون شيئا ما. كما كنت اشاهد كيف تذبح الشمس بسيفها الناري رأس شخص ما او تصهر اذنيه و انفه حيث كانت الضحايا من الفتيات غالبا وذلك بسبب طبيعتهن الناعمة. فقد كان قلبي مع شربت ويدق لشربت.

وجوه المارة كانت مطلية بالزفت؛ كأنهم طالعون للتو من براميل القار. كنت استغرب كيف وبوجود وفرة النيران في هذه الأرض، يلمع الاسفلت في الشارع كصلعة صهرنا. يتصور الناس انهم يمشون فوق الاسفلت لكن ليس كذلك، وانا اراه

زجاجا حيث تستطيع ان تشاهد البحر الاسود من وراء الزجاج و سترى خليج الخنازير إذا نظرت ببصيرة.

رأيت من وراء الزجاج عينين واسعتين سوداوين لأمراة سمراء تحدقان بي. من هي؟ شربت ام خيرية؟ لااعرف بالدقة. كانت تبيع الخردة على الرصيف: العود و البخور و القرنفل. منذ شبابي كنت ميالا للوجوه السمر اكثر من البيض. كادت تقتلنني بعيونها السحرية لكنني لم اتجرأ للخروج من الغرفة. النار تفور و السماء تنقلب حيث كانت دوامات القير الاسود في الشوارع المحيطة تذوب اي زائر جديد لم يعرف البلد. فانا الذي كنت اقيم ومنذ سنوات في جنة الفردوس حاولت اختبار حظي.

- آه يا جهنمي الجميلة، يا ليت كنت شاعرا لأنشد قصيدة لعيون شربت.

كان قلبي يحثني للخروج و عقلي يقول لي ان ابقى في الغرفة حتى المساء. صراع صعب كان يمكن ان يؤدي إلى مصرعي. لكن وفي النهاية تقبلت الفضيحة و منحت زمام نفسي بيد العيون التي احببتها من الازل إلى الابد.

كنت قلقا بان تختفي تلك العينان المكحلتان من

الرصيف المقابل لغرفتي. عند الظهر يعطل السوق و لن يفتتح الا صباح يوم غد. قررت جازما ان ادخل الشارع الفاضي لعيون شربت. كان يوما برتقالي اللون قائظا حيث يـمكن مشـاهدة السماء محفى بلوني الابيض و الاسود. ظهرا احمر يبول فيها الحمار دما. عندما كنت اسير على زجاج الشارع كان يتشقق و ينكسر كانكسار الثلج في الجبال. كنت اسمع من بـعيد نـباح الكلاب الزمهرية. وعيون شربت لاتـزال تشـع بـريقا يـضي ماوراء الفلك. كنت وسط الشارع حين شعرت بسـقوط شـلال من الضوء على رأسي. هل كان شلالا من شعلة الشمس ام اشعة مبهرة لعيون شربت؟ لاعرف. لكني اعرف انني جننت وفقدت صوابي. شعرت بـانشطار رأسـي إلى شـطرين و كأن الامر قد تم بواسطة ساطور جزار. الحمدلله على السلامة. فقد انشق وسـط رأسـي قـدر زورق صـغير كـنا نـصنعه فـي ايـام الطفولة. فهل نزف دما؟ لم اشعر بذلك اثـر انـبهاري بـالنور. حتى لو نزف الدم لكنه انقطع فورا. صـقعت فـي مكـاني. لم استطع فعل شئ الا ان اجرجر جسدي المرطوب إلى ظـلال نخل على الرصيف. كان القار يتقاطر من كل انحاء جسـدي. فقد تلوث بدني من اعلى الرأس إلى اخمص القدمين. شعرت

بثقل الظلال الداكنة للسماء فوق رأسي. يا اللهي! كيف يعيش الناس في جهنم من هذا النوع؟ اي سؤال هذا؟ ألم تكن انت من مواليد وادي جهنم هذا؟ وألم تقض فترة من حياتك فيها؟ سرعان ما يعتاد الإنسان و ينسى الامور! لم يعرف اهل الجنة شيئا عن احوال اهل جهنم.

الطقس في الرصيف كان افضل من وسط الشارع؛ فاشعة الشمس لم تسطع مباشرة. الان يمكن لي ان افتح عيني؛ لكنني لم ار عيون شربت. لعلها هربت او لملمت خردواتها. اصبت ببلاء سيبقى اثره منقوشا في جمجمة رأسي إلى الابد. فقد حركت يدي التي احرقتها اشعة الشمس؛ حيث تدمت اثر لمسها صدع رأسي. اختبيت تحت عباءة بقيت من شربت او خيرية على الرصيف وذلك خشية ان يمر خازن من هناك و يشاهد رأسي المصدوع ليعتقلني بتهمة الحب. وبالعباءة وضعت حدا لاستمرار النزيف؛ لكنه لم يلتئم كاملا. كنت اتحمل الوجع حيث تقرفصت تحت العباءة حتى ان حل الليل عليّ. إذ قصدت غرفتي بعد ان حل الظلام و برد الطقس في جهنم. وضعت فراش النوم وسط الغرفة و اضطجعت ووجهي صوب القبلة. فقد عودتني امي على ذلك

منذ طفولتي حيث كانت تقول لي: «لاتنس يا بني ان تنام صوب القبلة لان الموت لن يخبر سابقا و لايعرف ليلا او نهارا حيث من الافضل ان ينام الإنسان ووجهه صوب القبلة حيث إذا جاء عزرائيل ليلا تموت و وجهك صوب الكعبة». الان وبعد ان كبرت لم انظر إلى الموت بعيون الطفولة تلك لكنني حفظت وصية امي على ظهر قلبي.

في خان جهنم تلك الليلة اكلت حتى التخمة حيث تناولت في العشاء، سرطان البحر محشوا بالتوابل و كباب الافعى و جراد مشوي و مرق لسمك القرش. كما كان احد النصارى يبيع نبيذ التمر كتب على قنينته: « صنع في البصرة». والطريف ان النصراني هذا قد تم نفيه إلى هنا بجريمة بيع الخمور. وكدت اعشو في رؤيتي للامور حيث اخذت اخلط بين شربت و خيرية و الدم والنبيذ.

وقد خطف القلق النوم من عيني تلك الليلة. كانت قطرات الدم تتلألأ وسط الشارع تحت ضوء القمر حيث ساورني القلق بان يشاهد الخزنة تلك القطرات وان يعثروا على اثري. لكن القلق كان في غيرمحله حيث كانت هناك العديد من قطرات الدم و الجلود المشوية متناثرة في طول

الشارع و عرضه. حاولت النوم لكن وفي كل مرة كانت اضواء النيران المرتفعة من بئر الويل تصطدم بزجاج غرفتي و تعرضني امام انظار الخزنة. شعرت بانهم يقرأون افكاري من تصديعة رأسي. كان جسدي ينهمر في امواج الالوان الصفراء و البرتقالية وهي تماثل تلك الامواج التي ترتطم بالسواحل الاسمنتية للنهر. اي ذنب ارتكبت؟ حب عيون شربت ام اشتياق زيارة يونس؟ فقد انصدعت جمجمتي و هربت تلك العينان السوداوان و الوجه الاسمر. تذكرت كلام من سهل بن هارون الحويزي، ذلك العالم العتيد حيث قال:« في مثل هذه الحالة يمكن للشمس ان تصدع عقل العاشق او تسيل دمه لكن قلبه سيبقى حيا بالحب. و ستتوالد القطرات و تنمو و تزدهر بفعل ضوء الشمس». ياله من كلام قيم و هو كلام لعارف في زمن كان العلم متأخر من العشق.

انقضت تلك الليلة كانقضاء العمر باكمله؛ ليلة سوداء، بيضاء، صفراء و برتقالية حيث كنت وحتى الفجر ساهرا قلقا!

الهواجس الاخيرة للسردار اقدس

أين انت الان لترى وضع السردار اقدس؟ انت الملك الشهيد وانا ملك التمر. خمسة عشر مليون نخلة في مساحة تمتد من الفاو إلى البصرة كلها ملكي. كنت اقضي الصباح مع صبرية في الحميدية و في المساء في احضان المولية في الخفاجية. و كان عبدالحميد مستأجري الدائم لاسواق الناصرية. فليس عبثا ان تصف هذا بملك التمر وتقهقه لترتجف شواربك الطويلة التي تماثل شوارب الهر. فقد بلغ الامر حدا بان يصف العريف مختاري، السردار اقدس بابن

عرس. انظر كيف تغير الزمان! فقد نـزعوا مـني حـتى اللـقب الذي منحتني إياه، وها أنذا فـي شـتاء عـمري و لاشـي لي أتسلى به.

يبدو ان أحدا ما يطرق الباب. يصرخ بتهكم، ويـقول: قم أيها الشيخ لنذهب إلى النجف الاشرف. لكنني لست حيا؛ فالسردار اقدس اضحى ميتا، ويجب ان يتم نقل جثمانه إلى النجف. يرتجف جسمي كلما قرع البـاب. إنـني اخشـى هـذه القلعة الرهيبة التي تسمع أصوات الانين و النحيب مـن كـل نواحيها. لم اعرف ماذا يخبئون لي. لم أر بعد قمرا في السماء ليلا؛ وقد تركتني قمر منذ فترة. انني متأكد أنها تخاف أيضاً. مازال صوتها الجميل في أذني؛ فهل اسمع بعد الان صوتك الرخيم ياقمر؟!

انني اعلم بانه يريد ان ينتقم منك؛ فمن الافضل ألا تزورينني. عندما سمعت صفير الباخرة، أصبحت الدنيا ذهبية في نـظري و طـار قـلبي اليك. كـنت تـزورينني فـي القـصر والاكياس الممتلئة بالليرات اقل هدية اقدمها اليك. لنـفرض انه انزعج من عملي هذا، لكن انزعاجه الاكبر يعود إلى عدم انحناء رأسك تعظيما له. إذ إنك حتى لم تـنحني إلى الأرض

لتأخذي من تلك الليرات المبعثرة. فـقد عشـعشت مـنذ تـلك اللحظة، فكرة الانـتقام مـني و مـنك فـي قـلب الشـاه رضـا البهلوي. فأنا الان يا قمري العزيزة أرزح في هذه القلعة. نعم اسمع أصواتا وراء الباب. لم يسبق انهم جاءوا الي في مثل هذا الوقت من الليل. لم افتح الباب. اجـلس القـرفصاء فـي ركـن الغرفة.

اينكن يا « نورية» و يا «جـانيت»؟ فـقد اشـتاق قـلبي لرؤية جسديكما الرخامي! ورقص عـلى سـطح المـياه! انـني جالس على ظهر البـاخرة و انـظر إلى الاطـراف. انـني اعـلم بانكما تـتنافسان لكسب ود الشـيخ! نـورية! أنت نـور العـالم محضا. فعندما اجلس قبالتك لاأحتاج إلى مـرآة. اسـتطيع ان اشاهد الماء في حلقومك! انـني جـالس إلى جـنبك؛ فـيحضر مسؤول الخزانة، و يقول:

- تحياتي للسردار اقدس، نجل نصرة الملك، حـاكـم عربستان، امير يونان، وملك التمر. انني اعرض لسماحتكم ان الخزانة امتلأت هذا العـام مـن الايـرادات النـاجمة عـن بـيع محاصيل النخيل في البصرة و المحمرة و عبادان؛ أطلب أن تسمحوا لي بان أحول قسما منها للادخار في مصرف «بنك

او انجلند».

انهض من مكاني وهي جالسة. قدمي تلامس حافة ظهر الباخرة. لون الماء يتمايل للاصفرار واسماك القرش تدور حول الباخرة تبحث عن قطرة دم. اشعر برياح صفراء تجري من كل صوب وحدب. يقول لي رضاخان البهلوي: «تعيش بهوى تلك الراقصة المصرية وأنت على شفير القبر؟!» في اول ايامي بطهران كان يطعن بي كثيرا بمثل هذه الكلمات، لكنه منذ مدة أغفل السؤال عني.

شعرت بأحد ما يطرق الباب. أنهض او لاأنهض؟ هذه هي المسألة. لم ادر، لم استطع؛ فقد تعب قلبي بعد عمر يناهز الثمانين. هذا القزاقي الامي لم يفهم شيئا(ماذا قلت؟! اخشى أنهم يسترقون السمع من وراء الباب). فاتعاب قلبي مصدرها انتن الجميلات. لايتمتع بالذوق هذا المكاري. فقد غلبت في مسابقة المشاعرة اكبر الشعراء العرب ماعدا ذلك الشاعر العباداني الكفيف الذي غاب اسمه عن ذاكرتي التي ماعادت تعمل كما أُريد. يعد الخيام اكبر شاعر من بعدي. هكذا يصنفني غلماني. اينكم يا فدائيي خزعل، يا مقاتلي قبيلة البهمئية ويا غلماني ويا حامل نارجيلتي الاشرم. فكم هي

كبيرة آمالي في هذا الضريح النـدي. مـرة عـندما كـنت اتـلو قصيدة لعمر بن كلثوم خاطبني السر برسي ساكس وهو ثمل: « كيف ينشد السفاحون القصائد؟» فتغافلت عن كلامه، لكن ابني عبدالحميد الذي كان جالسا معنا صفعه بقوة على وجهه وها أنذا أدفع الان ضريبة تلك الصفعة.

يطرقون الباب؛ فلا افتحه، انـني أخشـاهم؛ يـفتحون الباب بقوة! هل جاءني« الطـبيب احـمدي»؟ فـهو لم يكسـر الأبواب، بل يقضي على حياة السجناء بحقنة الهواء!

- انهض يا شيخ؛ نريد أن ننصبك مرة أُخرى حـاكـما لإقليم عربستان.

اعرف هذا الصوت الكريه، فـهو للـنائب يـاوري. اعـلم بانهم يريدون ان ينصبوني حاكما عاما للمقابر. اشعر بأن أحدا ما يقف خلف أبواب قلبي. يطرق و يطرق؛ يضربون صدغي و اسمع في قلبي صدى الضربات.

زائر بردان

قالت: لاتثق به لن ينقل الرفاة.

قلت: لكن اخبرني زائر بردان بأنه سيضع الرفاة في تابوت بعدما يضعها في كيس وينقلها إلى العراق.

قالت: يكذب

كنت اعرف من قبل بعض الاشياء عن زائر بردان لكنني لم اكن اصدقها. كان عاملا في معمل «كمب كريت» التابع لشركة النفط، ويعمل تحت اشراف الميرزا رحمه الله. كان البعض يقول انه يسير في النوم، و البعض الاخر يقول إن

الشيطان ساكن في جسمه، والناس تنقل حكايات كثيرة عنه.

قلت للمرأة: عليك أن تحكي الحقيقة؛ فهل كلامك هذا بسبب طلاقك منه أو أن الزائر في الواقع لم ينقل الرفاة إلى الجهة الأُخرى من الحدود.

قالت المرأة: زائرة ! لاتثقي بزائر بردان، فإذا تمكنت أنت من رؤية أُذنك فهو قد رأى النجف. فلاتسلموا الرفاة البريئة له، لئلا تصبحوا قصة على الافواه بما يوقعه بالرفاة.

- لِم تتحدثين بهذا النمط؟ هل شاهدت بعينك عملا شائنا من زائر بردان؟

- ثقي بأن بردان، هذا الفاقد للضمير، لن يوصل الرفاة إلى النجف.

- لكنني أريد أن أنقل الرفاة إلى النجف، حتى لو بعثت معه مرافقا كزعيبل او غُلَيّم.

- هل المرحوم نفسه وصى بنقل رفاته إلى النجف؟

- لا لم يوص، لكنني أنا أريد أن يجاور قبره مرقد أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام كي يشفع له يوم القيامة.

فاذا لم يكن في العالم مَن يعرف شيئا عن زوجي فانني أعلم أنه لم يسيئ لأحد في حياته؛ فلم يأكل مال أحد، و لم

يسرق ذرة من أموال الشركة التي كان مسؤولا لأحد اقسامها. العاملون تحت اشرافه كانوا يقومون بهذه الأعمال. أما هـو، فماقارف مثل هذا، ولاخطر على هذا. كان نجيبا، فلم أسمع، ولم أر يوما حتى في عز شبابه أنه ولج بيت الدعارة الذي بناه الانكليز في عبّادان عندما كانوا يصولون و يجولون فيها.

كان شابا وسيما اشقرا ذا عينين زرقاوين. فكل من كان يراه يتصور أنه أجنبي. فلم يتسل الا بـالجرائـد و الراديـو. لا أقول انه معصوم من سلالة النبي، استغفر الله.

سألتها المرأة: الميرزا كان سليما، فهل صحيح أنه مات اثر جلطة قلبية؟

- لا ياعزيزتي، الجلطة هي الوسيلة التي يتسلم اللـه امانته بها. فقضية الميرزا ليست قضية اليوم و الأمس بل انها تعود إلى قبل سنوات. فقد حكى المرحوم نفسه القصة لي:

المرحوم و المرأة البُنية

قبل عشر سنوات، أو لا، استغفرالله، قبل تسع سنوات - إذا ما أخطأ- بدأ المرحوم يعاني من الدوار في الرأس. وقد فقد تعادله الجسمي، و لم يفارقه المرض منذ ذلك الحين. لم

يبق طبيب في المدينة و لا كاتب ادعية لم يراجعه. كان في الظاهر سليما ولم تكن هناك ظواهر للمرض، لكنه كان يعاني عادة من وجع لم يفصح لنا عنه. فمعظم الأطباء و كتاب الادعية و السادة الذين عاينوه من قريب قالوا لنا إنه سليم معافى. فقد طلب مرات من شركة النفط أن تعمل على تقاعده، لكنهم لم يقبلوا ذلك، لانهم كانوا بحاجة إلى عمله. كان يتقن اللغة الإنجليزية، و يقوم بتسيير أُمورهم إلى أن شاهد ذلك الموجود الخبيث. كان الميرزا يقول لي: «كنت ذاهبا فجر ذلك اليوم إلى الحمام العام عندما رأيت تلك السمراء الشمطاء». لون وجهها لم يبق في خاطره بالدقة لكنه كان يقول:« اتصور ان لونها كان بُنيا يقترب من الاسود غبشا؛ و عندما رأتني، حدقت بي، و لعنتني بأيديها، غيرأنها سرعان ما توارت عن نظري، و لم اشاهدها بعد ذلك. فلم اعرف هل دخلت أحد البيوت، أو لاذت في أحد الازقة؛ كأن أرض الله فتحت فاها وابتلعتها».

انني متأكدة أنها كانت منشأ المرض لزوجي، فقد ابُتلي الميرزا به بعد ذلك ولم يتعاف منه قط. الميرزا كان يقول:« عندما دخلت الحمام العام ذهبت اول ما ذهبت إلى الخزانة،

وبعد الاستحمام فيها ذهبت إلى احدى الغرف، و فتحت الماء الحار، لآخذ دوشا حيث ملأ البخار الغرفة و ادى إلى صداع و دوران في رأسي، ثم فقدت وعيي ولم اعرف ما ذا حدث لي بعد ذلك. لكنني سرعان ماصحوت، و رأيت الحماميّ و الدلاك فوق رأسي، و ساعداني في ارتداء ملابسي. ارتحت هنيهة في مشجب الحمام، ثم ذهبت إلى المنزل». فقلت للميرزا اكيد أن جناً كان يعشعش في الحمام، لانك كنت سليما معافى؛ فلم يقتنع، كان يقول بأن قدميه انزلقتا و سقط على الأرض المبتلة. فلم تظهر تلك الخنزيرة البُنية بالصدفة في الطريق المؤدي للحمام. على كل حال اعطاكم الميرزا عمره، و بقيت أنا و مجموعة من الأطفال الصغار. الله يرحمه، لم يتجاوز عمره الثانية و الخمسين عاما. عندما جاء الطبيب مساءً أبلغنا بأنه مصاب بجلطة دماغية، ولايجب تحريك جسده؛ فالأطفال كانوا في نادي شركة النفط وعند سماعهم الخبر جاؤُا إلى البيت وعيونهم باكية. لكن ما الفائدة، فقد توفي الميرزا في اولى ساعات الفجر، و بالضبط في الساعة التي شاهد فيها تلك المرأة البنية في طريق الحمام.

سألت المرأة: كوني صادقة معي، أكلنا الخبز و الملح

معا، و قدم الميرزا الكثير من المساعدات لزائر بردان في مناسبات عديدة و منحه المحبة و ساعده على ترتيب حياته و معاشه، فهل تتصورين أنه سينقل رفاته إلى النجف؟

فقد خيبت آمالي زوجة بردان حيث قالت لي و بالحرف الواحد:

- لا. لن يوصل الرفاة إلى النجف.

قلت: إذا ماذا يعمل بالجثث التي يتسلمها من أهلها؟

- العديد من الناس الطيبين يثقون ببردان، و يسلمونه اقرباءهم الموتى، ولا يعلمون ماذا يفعل بهم، فما يشغلهم شي إلا ان ينفذوا وصية الموتى. لايعلم أحد غيري ما يفعل بردان بأمانته، وقد استحلفني ألا أبلغ احدا بذلك قبل الطلاق منه. و ضربني ضربا مبرحا ليأخذ مني هذا العهد. يتسلم بردان من ابناء هذه المدينة، جثة او جثتين شهريا، و يحصل على مال لابأس به من اقرباء الموتى لكنني على ثقة بأن الجثث لا تصل النجف ابدا، بل و لا تعبر الحدود في اغلب الاحيان.

- كيف يمكن ذلك و كل هذه الطلبات تتوالى عليه؟ فهل يعقل ان الجثث لم تعبر الحدود؟

- اي حدود يا زائرة ؟ ياليته يدفنهم في مقبرة «السيد

جواد» في الأهواز.

- اذن ماذا يفعل بالجثث؟

- بعد تسليمه لرفاة مات اصحابها قبل سنة او سنتين يخفيها في بيتنا. كنت انام في الليل وحدي في غرفة تحت درج البيت ممتلئة عادة من الصناديق الخالية و الملأى. فقد كان بردان يحب الاطفال لكنه و كما تعلمين لم ينجب اطفالا حيث كان يقول لي دائما: «ليت لي طفلا يرثني بعد رحيلي من هذه الدنيا، و ينقل جثتي إلى النجف».

لم اتمكن من النوم ليلا بسبب أنين الموتى حيث كنت اسمع الصفير والشخير والاصوات العجيبة والغريبة. وفي منتصف الليل كنت اخشى الخروج من الغرفة إلا برفقة بردان. فلم يكن لي بد إلا تحمل المشكلات، إذ لاأحد لي يؤيني أنا اليتيمة البائسة. في الابتداء كانت حياتي المشتركة مع بردان صعبة جدا، لكنني حاولت أن اتأقلم مع الموتى رويدا رويدا. فقد رحت أُلقّن نفسي بان الصناديق مملوءة من الفواكهة، لأزيح من رأسي فكرة الجثث و الموتى لكنني لم انجح يا زائرتي.

في تلك الصناديق الضيقة كان الموتى يعانون اشد

المــعاناة، ليـلا و نـهارا، و يـصدرون انـواع الأصـوات. كـانت ارواحهم سائبة في أنحاء البيت، تـجول و تـصول فـي كـافة الغرف. لم يكشف بردان لي عن اسماء الموتى، و عندما أعلم باسم احد منهم كان يزورني روحه ليلا و يعاتبني و يشـتكي من وضعه السيئ ويلعن بردان.

- وفي النهاية هل علمت إلى اي مكان ينقل الجثث؟

- أول عمل كان يقوم به بردان عند وصول الرفاة إلى البيت هو نزع الاكفان منها، وذلك إذا كان هناك كفنا سـليما بعد مرور عام او اكثر على وفاة الشخص. فهو ينتقي العـظام الكبار و الطوال و يضعها في كيس ليتمكن من حملها بسهولة ومن ثم ينقلها إلى خارج المدينة ليدفنها في الصحراء ليقول بعدها لذوي الميت بانه نقلها إلى النجف.

فاذا كان يريد ان يـبدي لطـفا لأقـرباء المـيت يـنقل الرفات إلى منطقة الشلامجة، بين المحمرة والبصرة، للتلميح بأنـه يـنوي نـقلها إلى النـجف لكـنه كـان يـقذفها فـي نـهر الشلامجة الحدودي بين إيران والعراق دون ان يعبر الحدود ابدا. ايقني يا زائرة بان بردان لايملك عقلا سليما حيث كدت ان اصبح مثله بعد كل هذه الحياة المشتركة معه. فهل يمكن

ان يبقى الإنسان سليما وهو يعيش مع الامـوات؟ فـقد انشأ مؤخرا صداقة مع جن اسمه « كافور» لتمتد مع آخـرين مـن طائفة الجن.

بردان و الجن

كان بردان يحب ابن شقيقه حُباً جـمّاً، و كـان الطـفل يعيش معنا معظم الاوقات، و ينام في الليل إلى جانب عـمه بردان على سريره.

وقد توفي هذا الطفل بالسرطان مطلع الشتاء الماضي، كان طفلا وسيما، لَسِناً، و ذكيا، عمره سبع سـنوات، فـحزن عليه بردان كثيرا، لأننا كنا نعده ابنا لنا، ولذا حلف بـردان أن ينقل جثته إلى النجف.

قال لي: «سأحتفظ بالجنازة هنا في بيتنا خـلال زيـارة الشاه إلى الاهواز لرداءة الأحوال الأمنية وأنقلها بعد ذلك إلى النجف».

فكررت عليه:« أن هذا الطفل لم يبلغ سن الرشد بعد و ليس هناك حاجة لنقله إلى النجف لأنه يعد من طيور الجنة واينما تدفنه يذهب إلى الجنة بصورة عفوية».

كان مصرا على ما قاله لي. و في الليلة الاولى وضع جثة الطفل في الفناء الخلفي للبيت، وعندما استيقظ في الصباح رأى الجثة ممدوة إلى جنبه على السرير، فدهش و أخذ يصرخ: « هل يعقل أن يتحرك الموتى! هل عاد الروح إلى ميتنا؟! وويل لي إذا احيي الموتى كلهم!» كان يشتم نفسه و يثرثر:« هل هذه حياة؟! والله العمل الذي يقوم به غسال الموتى او حفار القبور افضل من عملي هذا. فانت شاهدة عمر يا امرأة على هذا العمل القذر الذي صار نصيبي في هذه الدنيا».

وقد وصل الامر بالرجل ان يلعن نفسه. و قلت في قرارة نفسي رغم خوفي منه:« أيها الخبيث، انت تكسب الأموال من هذا العمل القذر و تدفن الرفات في اي ارض تراها مناسبة حتى إذا لم تكن مقبرة وادي السلام في النجف. فقد كان بامكانك ان تستمر في عملك في شركة النفط بمنطقة كمب كريت».

فقد قضى ذلك اليوم مغموما و مهموم. نقل الجثمان إلى مكانه مرة أُخرى. فهو كان يخشى ان تشتد الرقابة على الحدود الإيرانية ـ العراقية اثر الاعلان عن زيارة الشاه

المرتقبة لمدينة الاهواز انذاك. وبما انه قرر ان ينقل الجثمان إلى النجف اخذ يتحين الفرص.

في اليوم الثاني استيقظ و الجثمان إلى جنبه على السرير مرة أُخرى. اصيب بالدوار، اخذ يضرب رأسه بالجدار وهو يكثر الشتائم لنفسه. في الحقيقة انا أيضاً دهشت من المشهد. كيف يمكن لجثمان هذا الطفل ان ينتقل من مكان إلى مكان؟ فلم تطأ قدم أحد بيتنا في هذه المدة. فهل كان الطفل يحيا في الليل ويجي لينام في حضن عمه؟ او ان أحدا من الجن ينقل جثمانه من الفناء إلى سرير عمه لينتقم منه او يؤذيه؟ وكلما فكرنا في الامر لم نصل إلى نتيجة.

لم نستطع ان نبوح بمصيبتنا لأحد،فالكشف عن مشكلتنا يمكن أن يفضحنا. تكرر المشهد خمسة ايام متتاليات،وفي اليوم الخامس جُن بردان، وأخذ يصيح بأعلى صوته:« انني كافور، انني كافور» ويكرر ذلك مرات و مرات. وإذا ناديته باسمه « بردان» يضربني ضربا مبرحا باحد عظام الموتى. بقيت اخشى ان يتحرك سائر الاموات في بيتنا و يسببوا لي سوءا. حسبتهم يتصورون أنني شريكه في جرائم بردان عليهم، فهربت بسرعة من البيت، والوقت منتصف

الليل؛ وتسكعت حتى الفجر في أزقة حي «الخزعلية» حتى انتهى بي الأمر إلى مقبرة «السيد جواد» وأخذني النوم عند أحد القبور.

وفي الصباح سمعت أصواتا، تصورت أن اللعبة عادت من جديد، لكنني لم اسمع شخيرا و لا نخيرا. الإصوات كانت مجللة و تأتي من وسط المقبرة. والاشباح المكفنة تتحرك و تردد شعارات على الوضع المتردي للمقبرة. وهتفت معهم مع أن شعاراتهم لم تكن مفهومة، و لم أمش شوطا حتى وقعت رجلي اليمنى في ثقب لم اتمكن من إخراجها منه. شعرت بجناحين كبيرين على كتفي؛ تعززت معنوياتي غير أن القبر كان يجذبني. لم اتمكن من النظر إلى الثقب المظلم الذي كاد أن يعميني. حاولت أن اطير، كررت الامر عدة مرات؛ لكن قوة أو يدا من وسط القبر كانت تبطل مفعول محاولاتي كلها.

حدقت في وجوه الموتى، رأيتهم يبتعدون عني و رجلي مقيدة في الثقب المظلم.

جريمة في كوت الشيخ

- عليك أن تقتله الليلة بالضبط.

- لا، لايمكن الليلة!

- مـع الأسـف لا رجـل فـي هـذه العشـيرة؛ فـغلطتي الكبرى، أنني كنت أعلق الامآل عليك.

- سأنتقم للشيخ؛ لكن أرجوك أن تمهليني حتى صباح غد.

صمتت المرأة، ووضعت قدمها اليـمنى عـلى اليسـرى، وغطتهما بثوبها الطويل.

كانت أسوار الذهب تغطي ساعديها، وترتفع منها اصوات اصـطكاكـها، وذلك عـندما كـانت تـجفف عـرقها بـمنديلها الابيض، أو تهز عصاها الخيزران التـي كـانت تـحملها مـعها دوما.

كان هناك شيئان يستقطبان نظره: «سحّارة» قديمة في أحد أركان الغرفة، و صورة مؤطرة للشيخ تـحدق مـن أعـلى الجدار في أجواء الغرفة الحزينة.

نهضت المرأة من مكانها، و اتـجهت إلى «السـحّارة»، وفتحتها بالمفتاح الذي كان موثوقا بسلسلة في رقبتها.

حدق الرجل في قطعة قماش يبدو أنـها مـلفوفة عـلى تعويذة مقدسة. رفعت المرأة قدرا من القطعة، فظهر شي أسود اللون يسطع بفعل الأضواء التي تشع من خارج الغرفة.

اتسعت عينا الرجل،وسأل: من أين أتيت بهذا؟

ابتسمت قائلة: من بطن الأرض!

وسأل الرجل مـرة أخـرى بـدهشة: مـن أيـن لك هـذا السلاح في هذه الأجواء المشفوعة بالاعتقالات؟

- لاتنس أنني نعمية و الحي يعرف باسمي نعيم آباد.

- اعرف هذا ولكن..!

- لاتشغل بالك بهذه الاشياء، عليك فقط أن تعدني بتنفيذ العملية.

- اقسم بجدنا المشترك، بشيخ المشايخ.. لكن..

- ما معنى لكن؟ هل تريد ان تضع لي شرطا وشروطا؟

جلست المرأة واضعة قطعة القماش الاخضر على الرف.

قال الرجل بلحن يقترب من الالتماس: سيدتي تعلم..

- نعم أعلم أن لديك امرأة و إحدى عشر طفلا؛ ماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أسأل: ماذا يكون مصيرهم إذا ألقوا القبض عليّ.

- إذا اعتقلوك سأشتريك بأموالي، وإذا لم أستطع سأغير اسمي. ستقضي برهة في السجن، و سأدفع نفقات أسرتك. وهذا عهدي مادمت حية.

-ألا يمكن أن نحل المشكلة، وننهيها بأسلوب «الفصل» و وساطة كبار العشائر؟

شحب لون وجهها، وصاحت بغضب: ألم أقل بأنك لست رجلا. كل إنسان يمكن أن يتخذ الفصل سبيلا للحل، لكن نعيمة..

قاطع الرجل، نعيمة ناهضا من مكانه مقبلا يدها.

نعيمة لم تسحب يدها. حدق في هندامها الذي كـان يفوح عطرا منعشا. شعر بالدوار المفعم بإحساس غامض تجاه المرأة. عاد مرة أخرى إلى مكانه و جلس. لم ينظر بعد ذلك إلى عينيها السوداوين الواسعتين.

أحنى رأسه، ولم ينظرإليـها. كـان المـعوز الوحـيد فـي الأسرة الذي احتك بأبناء الشوارع لما كان يشعر بـالدونية ازاء المرأة. إذ أصبحت نعيمة أكبر أفراد الأسرة بعد اغتيال الشيخ شكر و الصغير والكبير يحترمها و يجللها. كان لايزال رأسـه منحنيا إلى الأرض عندما سألته:

- لماذا لم يفجر الاطفال اليوم المفرقعات؟

- لماذا؟

- من أجل الشي الذي نريد اختباره.

خرج الرجل من الغرفة، و همس في أُذن أحد الأطفال الذين كانوا يلعبون في الفناء الداخلي، ثم عاد إلى الغرفة،و قبل أن يجلس طلبت منه أن يقفل أبواب الغرفة.

قال الرجل في قرارة نفسه: «دخـيلك يـاالـلـه» وسأل المرأة:« ماذا تريدين فعله سيدتي؟».

المرأة لم تُجبه، مدت يدها إلى قطعة القماش الخضراء و سحبت منها شيئا أسود اللون، و سلمته للرجل.

لمسه الرجل في الظلام. كان لزجا؛ كأنه مشحم بزيت التزلق.

كان ضجيج المفرقعات و السيارات مسموعا داخل الغرفة. حدق الرجل في وجهها الجميل و الحلى الذهبية التي كانت تغطي عنقها وذراعيها، وساد الصمت بينهما هُنيهة. ثم سألته المرأة: تعرف كيف تستعمله؟

أجاب الرجل بـ «نعم»، و جثى على ركبتيه، كاد قلبه أن ينتزع من صدره. «شرف العشيرة، الهندام الرشيق، الأساور الذهبية، نفقات الأسرة، و التسكع في بلاد الغربة» هذا ماشغل باله في تلك اللحظة.

سألته المرأة: لماذا أنت متردد؟ عليك أن تطلق الرصاصة.

حدق الرجل في النقطة السوداء في وسط المثلث الابيض. كانت يداه ترتجفان. أطلق رصاصتين لم تصيبا الهدف. كان الجدار الابيض يبتلع الرصاصات الخاطئة. مرة ثالثة و رابعة و.. سابعة؛ حتى شعر بأن يديه ماارتجفتا بعد

ذلك. أنهكته العملية وأخذ العرق يتصبب من كل أنحاء بدنه.

«سأدفع لاسرتك ما تحتاج إليه، وسأشتري لك منزلا، وسأفعل كل ما تريده إزاء العمل الذي ستقوم به».

كان الرجل يتأمل المفردات التي تفوهت بها المرأة حين أضافت: الان يمكنك أن تفتح أبواب الغرفة، عليك أن تبلغ الأطفال كي يكفوا عن تفجيرالمفرقعات،وقبل ذلك قل لي: ماذا تفعل غدا؟

-غدا..! أنا..! سأقوم بالعمل الذي تريدينه، وسيتم هذا فقط من اجلك.

هز الرجل رأسه إلى الأمام، وقال بصوت ضعيف يسمع بصعوبة: سأذهب صباح غد إلى حارة «كوت الشيخ»، أنتظر مجيئه ومن ثم..

- في مكتبه أم في الإدارة؟

- لا في مكان أسوأ من المكتب!

- أين؟

- في المرحاض.

- أحسنت، أحسنت عليك. الآن فهمت ماذا أُريده أنا. إنك سترفع رأس العشيرة، و ستبهج روح الشيخ شكر - رحمة

الله عليه - أنت تعرف أن الشيخ لم ينصفني في أواخر حياته،إذ وقع في حب تلك الراقصة الساقطة، و أثار غضبي وحنقي، و لوث أصالة أسرتنا. إنني أعني اسمهان الغجرية التي أنجبت له ثلاث بنات حرام. سأطردهن من البيت؛ سأطردهن بعد انقضاء أربعينيته ان شاءالله.

- عليهن أن يذهبن إلى أخوالهن، ليعزفن على آلة الرباب. يجب أن تبقى سلالة الشيخ شكر، نقية.

شعرت المرأة كأنها تتحدث لاعضاء عشيرتها، و فيما كانت تظهر هيبتها و وقارها الشيخي قالت:هل سمعت مؤخرا أن بعض حديثي النعمة يجترون الكلمات ويقولون إن زواج الأقارب امر سيئ، ويتسائلون لماذا أبناءنا مصابون بالنعورية وماشابه ذلك وهم يريدون بذلك تدمير عائلتنا. وأنا أسأل لماذا قُتل الشيخ أساسا؟ أجل لماذا؟! فالطرف المقابل لم يكن من عامة الناس، بل كان شيخا أيضاً، شيخ عشيرة «الاماجد». فقد وقعت مشادة كلامية بينه و بين الشيخ شكر حين قال له شكر: إن الشيخ خزعلا هو الذي منحنا حكم شيخ المشايخ ولم تكونوا أنتم إلا رعايا لنا، ولا نسمح لكم بالزواج من بناتنا.

وقد أثار بذلك حنق الطرف الآخر، و كانت هذه الجريمة

حصيلة تلك المشادة الكلامية، و قضية الخلاف على الأرض و الأملاك كانت ذريعة ليست الا. وعلى كل حال لايمكن تطهير الدم إلا بالدم. عليك أن تنتقم للعشيرة، ولاأعرف رجلا آخر غيرك يقوم بهذا الواجب الذي لايؤديه، إلارجل لايقيده في الحياة قيد،وهو مستعد دائما للانتقام من الأعداء. جميع افراد عشيرتنا أصبحوا مقاولين، أو يعملون في شركة النفط وهم يبيعون اراضي العرب للغرباء. لكن «الأماجد» يرون قتل الإنسان كشرب الماء، لأن الحياة في المدينة لم تفسدهم، فهم مازالوا يعيشون بمزاج العشيرة وضوابطها.

قال الرجل:

- هل تريدن رأسه؟

- لا، لأنهم سيفتكون بجميع أفراد عشيرتنا. فقط عليك ألاتنسى أن تطلق عليه رصاصة الرحمة. لا، لا، ليس رصاصة الرحمة بل عليك أن تخنقه بيديك.

مكثت المرأة هنيهة؛ ومن ثم رفعت رأسها إلى الأعلى. و فيما جال في بالها شي سألته: ماذا سمعت صباحا عندما كنت في وسط المدينة؟

- أقسم بالله أنني لم أخرج من البيت منذ أسبوعين،

ولم التق إلا النساء، ولم اقبل مقابلة الرجال، فهم ليسوا برجال.

ـ أنت الرجل فقط، و شكر كان رجلا أيضا، لكنه رحل وأسفاه. كنت أعرف أنك سوف تترك كل شي في حياتك، و تجي إلى هنا. فقد قطعت طريقا طويلا قطعت ثلاث مئة كيلو متر، لتنتقم من الأعداء، كنت أعرف هذا من قبل.

رد الرجل: لم أسمع اي خبر خاص صباح اليوم، لكن يجب أن أقول لك بأنني كنت هنا عند وقوع الجريمة. جئت إلى المدينة فجأة، ولاعلم لي بشي. الوضع كان مضطربا. في التاكسي سمعت خبرا مبهما. المسافرون كانوا يتهامسون بينهم، ثم رأيت العسكر منتشرا في كل أنحاء المدينة، فسألت السائق «ماالأمر؟» حدق بي وقال: «أحكام عرفية» فقلت له: هل.. لكنه لم يمهلني وكأنه علم بأنني أريد أسأل:« هل حدث شيئُ مهم؟ فرد عليّ: «لا» لكنه يبدو ندم. وأضاف:« قتلوا شيخا بارزا في المدينة». شعرت بالقشعريرة، وعندما فكرت مليا تذكرت باننا احدى العشائر الكبرى في المدينة. سألت السائق مرة أُخرى:« هل تعرف اسمه؟» فرد بـ «لا». من ثم قررت ان أزور بيتك، حيث قلت للسائق:« هل تذهب إلى

نعيم آباد؟» قال: لا، الدروب مغلقة. فنزلت عند رأس الجسر، حيث اطلعت هناك على كل التـفاصيل. وعـدت أدراجـي، و غادرت المدينة في قطار الساعة التاسعة مساء. ولم أزر بـيت أحد، و قلت لنفسي: سأعود بعد أن تهدأ الأمور! والان أنا في خدمتك يا سيدتي الكبيرة.

ـ جئت في الوقت المـناسب. عـليك أن تـثمن أهـمية قطعة السلاح هذه، فقد دفعت مالا باهضا لشـرائـها. أرسـلت أحدهم إلى البصرة في العراق، ليجلب لي هذه القطعة.

خبأ الرجل المسدس في قـميصه، و خـرج مـن البـيت صباحا والشمس تصعد في السماء.

تركان خاتون

من أين اتى ذلك الحيوان العجيب؟ مـن بـين اشـجار النخيل أو من شرفة القصر؟ كدت ان أُصاب بـجلطة قـلبية. فهذا الدخان الاسود واصوات المـحرك، الكـريهة و المـؤذية، يمكن ان تيقظ جميع بهائم الوادي.

لاشك بـان الأحـراج، هـي عـرين لعشـرات البـهائم والسباع وأنا– بالطبع– لايهمني من هو في الأحراج. اشكالها تثير جنوني.

خصال خضراء منتشرة على ضفاف حـمراء. لم اسـتطع

الوصول إلى ضفتي النهر و صلصالها، حيث لو تمكنت لقمت بنحت تمثال لتركان خاتون و لوضعت محارتين بيضاوين في حدقتي عينيها. ينضح الزيت و الصبغ - عفويا - من أناملي؛ فلا اتمكن من السيطرة على مشاعري الجامحة. ياليت كان غوغان قد جاء إلى هنا قبل أن يسافر إلى هاييتي. عالم بكر و غامض، لم يرسمه رسام ما في الدنيا من قبل. يجب ان تنظر بعيون أُنثوية إلى هذا النخيل الباسق الفظ الخشن. شعور من البهجة يملأ عروق نهودي الزرقاء. يمكن ان أُسمي اللوحة: «أرض الشمس و العنف».

فهل تم استئناس ذلك الحيوان العجيب؟ ماأزال اشعر بالرجفة من خشيته. عندما أُحدق في المياه، أرى نفسي و اللوحة وأحاسيسي الملونة ترقص على سطحها. فتتحلل الالوان في المياه، لكن عروقي الزرقاء تبرز وكأنها اكثر شفافية من المياه.

يمتزج اللون الاخضر للوحتي مع أُخضرار الاحراج حيث أرى ضوء عيون تسطع من بينها؛ كادت أن تعمي عيني.

اقفز من الكرسى دون ارادتي، يفاجئني الخوف، فأقترب من تركان خاتون التي تحاول تهدئتي وهي تخاطب

الحيوان الذي يقف أزاءنا:

- «وريدة» وَلّي من هنا.

لم يذهب الحيوان العجيب بل زار وتقرب منا. تخاطبني تركان خاتون:

- لاتقلقي، «وريدة» يريد ان يلعب معك، فهو يتغنج.

سألت في قرارة نفسي و الخوف يغمرني «أيّ غنج هذا؟»

يمد الحيوان جسده. و يحك ظهره بذيله، يفتح فمه، لتظهر اسنانه البيضاء.

ادنو من تركان خاتون أكثر فاكثر. انفاسها الممزوجة بانفاس الحيوان الدافئة تلامس وجهي. اشعر برطوبة في وجهي؛ فهل سالت دموعي خوفا من الحيوان؟

المس وجناتي، فالرطوبة من انفاس الحيوان. مسحت تركان خاتون يدها على ناصيته، زأر و وقف على رجليه، وقام بالدوران حول نفسه. اقذف بنفسي في حضن تركان خاتون، لأُخفي وجهي في تنورتها الطويلة. تقول لي: «انهضي مدام! وريدة حيوان غيرمؤذ».

أرفع رأسي قليلا. يزأر بصوت مخيف، و شواربه تبدو

كالإبر المسننة.

تقول تركان خاتون: يستغرب طفلنا هذا، انه جائع أيضاً.

تدفع الحيوان إلى الوراء لأتمكن من رفع رأسي من حضنها والجلوس إلى جنبها. تقول لي مرة أُخرى:

- لا تقلقي مدام؛ «وريدة» حيوان اليف.

يتقدم الحيوان، و يرفع يده ليصافحني، تراجعت بعض الشيء حيث اخذت أبحث عن مكان مأمون لأخبئ نفسي فيه. تركان خاتون تسليني. لم استطع النظر في عيونه الساطعة.

صفقت تركان خاتون وأحضرت الوصيفة، وقالت لها شيئا بالعربية.

عادت الوصيفة بعد هنيهة و معها صحن من اللحم الهبر لنعجة طرية. أمرتها تركان خاتون أن تنأى بالصحن منا قليلا. هرع «وريدة» إلى الصحن. فقد تضاءل خوفي رويدا رويدا و تمكنت أن أُحدق جيدا بذلك الحيوان المثير. كان جسده مرقطا ببقع سوداء تبدو جميلة وبارزة على جلده الحنطي. قلت:

- انه نمر بالتأكيد.

- صحيح. فقد قمنا باصطياده قبل عام وذلك عندما كنا،

أنا و الشيخ، في رحلة صيد في الأحراج المحيطة بمدينة المحمّرة. فقد قمت بتأليفه، و أطلقت عليه اسم «وريدة» اي وردة الجوري الصغيرة. اصبح الحيوان مؤنسي الوحيد بعد رحيل الشيخ.

تساءلت في قرارة نفسي: «لماذا وردة الجوري؟» و حدقت في النخيل و الأحراج المجاورة.

انني ارى حاليا الاضواء تصدر من بين الأحراج، من تلك العيون لتنكسر، و تغوص في المياه بعد أن تصطدم بسطحها. فالمياه تفصلنا عن الأحراج.

فقد أُصيبت الباخرة بعطل فني، و رست امام هذه الأحراج الجميلة و الخافية للأسرار. انني أخشى هذه العيون الساطعة. أدعو الله ان يتم تصليح الباخرة كي يأخذنا معه هذا النهر العظيم. احضرت معي منصة تصوير، ووضعتها على ظهر الباخرة منذ ان غادرنا قصر «الفيلية» في ميناء المحمّرة؛ لكنني لم أتمكن من الرسم في كل اوقات اليوم. الامواج تحول دون ذلك، وإنني في الحقيقة ارسم على سطح الماء، إذ أرى عليه صورة لكل شيء ارسمه. كما ارى صورة الأحراج أيضاً. يبدو ان رساما بارعا اكثر مني ينافسني في الرسم. لم

اشاهد يديه لكنني أرى أثره على سطح الماء. فتتداخل الالوان و الخطوط بالقرب من ساحل النهر حيث لايمكن لي ان افصلها. يمتزج الشي بالشي. انني ارسم في الصباح و المساء فقط لان الشمس المحرقة تنزع جلدي مني في باقي ساعات النهار. فهل عليّ أن أرسم تلك العيون المتلالئة في لوحتي؟ يجب أن ألقّن نفسي بانني لم أخش النمور.

حدق فينا النمر مرة أُخرى بعد أن شبع من الطعام. يبدو ضاحكا و راضيا منا. قالت تركان خاتون:

- الاحراج الواقعة على ضفاف نهر كارون تعج بالنمور.

واردفت: «وريدة»، «وريدة» تقدم الينا.

ومن ثم لمست شواربه وقالت:

- تشبه شوارب الشيخ - الله يرحمه - كان يحب الحيوان هذا، يلعب معه، و يصارعه في بعض الاحيان. والانكى أنه كان يشربه «المْسَيّح» فعندما كان يتنمر و يهاجم الشيخ، تهرع الخدمة إليه لتوثق يديه برجليه.

لوحت تركان خاتون بلحمة وهي واقفة، ليقف النمر على رجليه ليخطفها منها. زأر النمر بعد ان أكل اللحمة، و دار راقصا حول نفسه. تحاول تركان خاتون أن تشبعه كي لايزأر

و يهاجم أحدا. سألت تركان خاتون:

- سـمعت أن الانـجليز يـنوون تـجفيف الأحـراج و احراقها؛ هل هذا صحيح؟

فردا على سؤالي، سألتني:

- لماذا انتم الفرنسيين اول الذين تسمعون مثل هـذه الأخبار؟

سألتها مرة أُخرى: هل ينوون شق الطرق؟

- إذا نفذوا ذلك سيسيطرون على المنطقة، و يـغلقون متاجركم في المحمّرة.

كما سألت: وماذا يكون مصير النمور؟

- واضح، سيتم القضاء على نسلهن.

- وما هو رأي الشيخ الشاب في هذا الصدد؟

- يعارض التجفيف مئة في المئة.

- لكـنني واثـقة بأن الانـجليز سـينفذون مـخططهم. لاتزال هناك آثار قذائفهم على جدران قـلعة المـحمّرة. فـهم يخططون لتعزيز نفوذهم لقرن و نصف القرن بعد الان.

النمر ينظر الي؛ ربما يشعر بأنني افكر في مصيره؛ فهو جميل و لطيف إذا لم يفتح فاه، و يظهر اسنانه.

انني مولعة بلون جلده، فعند غـروب الشـمس يـتلألأ جلده الحنطي كعيونه الدمـوية. مـنذ فـترة وهـو يـحدق بـي بوقاحة. لعله ينتظر نومي. الله اعلم بما يفكرفيه هذا الحيوان. هل هو يخطط لأمر ما؟ ربما يتمكن ان يفرسني حين اكون وحدي، لكنه لم يستطع ذلك بوجود زوجي« المسيو» و خادمنا و فنيّ الباخرة. لم اكن أحلم يوما، أن أضـطجع عـلى المـياه وبين المياه. فهل اكون الليلة فريسة لهذا النمر المتنمّر؟

وكم هي جريئة تركان خاتون التي قامت بتأليف النـمر «وريدة» كقطة مدللة ؟ الإنسان الاليف يُحب الحيوان الاليف. الانجليز لايريدون أن تكون هناك بضعة متاجر فرنسية في هذه المدينة. فكم هي مـتكبرة جـارية الشـيخ هـذه. «كـنت عزيزة الشيخ الكبير و أتقن اربع لغات: العـربية و الفـارسية و التركية و الروسية». عندما كانت تتفوه بهذا الكلام تبدو وكأنها كليوباترا الفرعونية.

ماذا كـانت تـفعل تـركان خـاتون لو لم يـرحـل الشـيخ الكبير؟ لربما كانت تـقوم بـتعقيم النـمور! فـقد وصـل الامـر بـالجارية التـركية ان تـقوم بـتعيين خـليفة للشـيخ الكـبير او الاخرون أن يختاره وهي تؤيد.

هم لايرغبون في الشيخ مزعل، و يقولون إن الشـيخ خزعلا مطيع لنا. اياك اعني واسمعي يا جارة! لاجـمل لي و لاناقة في الامر! انني رسامة فـقط؛ و مـفتونة بـهذه الأرض، اكتب رحلاتي، ليظهر كاتب آخر بعد مئة عام ليكتب قصة او مسرحية على أساسها. آه! اي خيال بعيد هذا؟ من هو حي في ذلك الوقت؟ لست واثقة بأنني أصل الاهواز حـية فـي هـذه الباخرة المسماة باخرة الشيخ الخاصة، و وجود كل هذه النمور التي تسرح و تمرح على طرفي نهر كارون.

عندما استقر الفنيّ وراء مقود الباخرة فهمت أنها تستعد للانطلاق. أغصان النخيل كانت تهتز بالرياح القوية و كأنـها تسلم علينا بأيديها!

بقي النمر و تركان خاتون في القصر. و ستكون مـعي دائما حتى أصل باريس، هيبة النمر، و ذكريات النخيل و طعم البلح المر و حلاوة الموز و البرتقال الذي أكلته فـي حـديقة الشيخ.

يـــودعنا مـزعل - او كـما تـصفه تـركان خــاتون، الشــيخ الشــاب - عـلى يـخته حـتى وسـط النـهر. شـقيقه الصغير كان إلى جانبه؛ يبدو قلقا، لكـنه كـان يسـعى لإخـفاء

قلقه بابتسامة ظاهرية.

فمن المحتمل أن يخبرنا القنصل عند وصولنا لمدينة الأهواز بأول نبأ، وهو غرق الشيخ الشاب في وسط النهر.

التمساح

لم أفهم سوى كلمة «غجر». لا تبدو حركاتهما مألوفة ولا سلوكهما. كانت نظراتهما مملوءة من الريبة والعداء. سحب أحدهما - وهو اسمر اللون ذو شارب كث - السكين من جيبه، وبدأ يلعب بها. كانا يحملقان ببغض حيث كان باستطاعتنا أن نتوقع ماذا يخططان لنا. همست لصديقي رسول: الحالة غير مألوفة.

- لكننا لم نفعل أي شيء.

- ما تقوله صحيح، لكن يبدو انك لم تسمع ماذا قال لصديقه ؟

- لا.

- قال له: هؤلاء «غجر».

سحبت الكوفية من حقيبتي، ولففتها على رأسي. سطعت عينا الشاب الأسمر ذي الشارب الكث. طوى السكين، وقال ضاحكا:

- هل كنت في مسقط ؟

- لا.

- فمن اين أتيتم ؟

- من عبادان، وانتم ؟

- كنت ضابط صف في مسقط والآن أتيت إلى بلدتي «سرباز»[١].

ضحك، فابتسمت.

أمر لنا بالشاي. قلت: لا أشرب.

- انزعجت ؟

- لا، الطقس حار.

- جيد، ما هو مقصدكم ؟

---

١ بلدة نائية يقطنها البلوش في محافظة بلوشستان إيران، قريبة من بحر عمان والمحيط الهندي.

- المحيط الهندي.

ضحك مرة أخرى.

وحين يضحك، يتحرك فكاه كفكي الكوسج.

كنا - أنا وصديقي - ننضح عرقا، حتى التصقت ملابسنا بأجسادنا.

كان المقهى يشرف على الوادي الذي يجري فيه نهر «سرباز». فكنا نرى أشجار الموز بوضوح. قال رسول:

- دعنا نستحم بالمجان بالنهر.

- يبدو أنك تذكرت نهر كارون ؟

- والله أنا مضطرب منذ أمس بعد استماعي للخبر الذي بثته الاذاعة. يا ليتني الآن في مدينتي عبادان. ليس عندنا خبر دقيق عن المأساة. اشتعلت سينما «ركس» [(١)] وما فيها من مشاهدين ولم نعلم من هو الحي ومن هو الميت ؟

- هل تظن أننا بعودتنا إلى عبادان نحيي الموتى؟

- لا ولكن في الأقل نطمئن على سلامة أقربائنا.

---

١ اشارة الى الحريق الذي شب في سينما ركس في مدينة عبادان قبل انتصار الثورة الإيرانية ببضعة اشهر، راح ضحيتها أكثر من ٣٠٠ شخص.

- ما هو الفرق ؟ الجميع هم أبناء مدينتنا.

واتجهنا صوب الوادي. رسول بدأ يجري في انحدار الوادي، متجها إلى النهر. مترنما بأغنية عربية قديمة، وبجريه هذا، ظننت أنه ينوي دخول النهر بملابسه.

وقفت هنيهة انظر إلى أشجار الموز و قطرات الندى تتلألأ على أوراق الموز العريضة والمتدلية من الأغصان.

هذه هي الأشجار الوحيدة المفيدة في تلك المنطقة، كانت مياه النهر مغرية في تلك الصبيحة المشتعلة، لكنني احترزت.

وصل رسول إلى ضفة النهر، ونزع ملابسه وأنا ماأزال واقفا في مكاني أنظر إليه، وإلى الشاحنة التي وصلنا بها، ولولاها لم نصل إلى هذه البلدة النائية، وإلى المحيط. كان السائق قد استخفى في المقهى وبدأ يشرب الأفيون. كنا خائفين ان يتركنا ويذهب دون علمنا، لأنه فهم أننا فهمنا بعض الأمور.

كانت الشمس مشتعلة في كبد السماء مثلما كانت أمس. فتلك الشمس كانت تختال في أعالي جبال «تفتان» كفتاة جميلة وتصب حممها على الأرض كنيران عفريت، وأنا

أرى عدة سحب قاتمة ووسخة ومبعثرة ذات أشكال مزعجة.

عادة لم ينتظر من السماء في ذلك الموسم الصيفي أن يمطر غير أنني كنت أشعر انه من الممكن أن تهطل علينا الأمطار الغزيرة في أية لحظة، يا لها من غيوم قريبة جدا فأشكالها تظهر انها كانت تتسكع في سماء هذه المنطقة منذ عهد آغا محمد خان الغجري [١]. فبامكانك أن ترى جماجم محتشدة، كانت تراقب الأرض دون عيون.

فادهشتني صرخة طويلة مرعبة من أسفل الوادي، حيث خرج عدد من الذين كانوا في المقهى. فاذا برسول يصعد الينا في أعلى الوادي لاهثا حتى إنه كاد أن يموت حينما وصل الينا. سألته: ماذا وقع ؟

قال وهو عريان يلهث: انظر ماذا ترى على ضفة النهر.

- لا أرى شيئا

- لونه لون التراب، انظر جيدا.

كان فم التمساح مفتوحا يبحث عن فريسة، فتمكنت من رؤية أنيابه أيضا. أصبح وجه رسول شاحبا ويبست شفتاه

---

١ مؤسس سلالة ملوك الغجر الذي حكم إيران في أوائل القرن التاسع عشر، واحتل بلوشستان ذات الكثافة السكانية من العنصر البلوشي.

وبدأ يرتجف في ذلك الطقس الحار. فلما ارتاح هنيهة، سألته: وماذا عن ملابسك ؟

- حتى لو تكون من الذهب لن أرجع اليها.

رغبت أن أقول له مازحا: كان الحظ معك مرتين حتى الآن، مرة نجوت من سكينة البشر، ومرة من سكينة الحيوان، لكن في المرة الثالثة الله أعلم بما يجري عليك. لكنني لم أقل هذا الكلام لأنني شعرت أن مزاجه لم يكن مستعدا للمزاح.

التمساح لم يزل ينتظر، ولم يفارق الضفة. نحن أيضا كنا ننتظر ساعة رسول الثمينة التي اشتريناها من مدينة زاهدان تلمع من بعيد. كانت تغرينا كي نتقدم اليها غير أن التمساح شعر بالأمر، فلم يتزحزح من مكانه قيد أنملة.

الشمس أخذت تقترب تدريجيا من وسط السماء. لم نعرف الوقت لأن التمساح أخذ ساعتنا رهينة، رأيته يشمها عدة مرات، كأنه يحاول أن يأكلها.

لو كان التمساح أكل رسولا بالتمام لوصل صديقي حتى الغروب إلى المحيط الهندي. فكان لابد لي في تلك الحالة الا أعود إلى عبادان خائبا والا أكون قلقا للحصول على سيارة

لتنقلني إلى ميناء «جواتر»[١].

قمنا بدفع حجارة كبيرة من أعلى حافة الوادي حيث أخذت تتدحرج انحدارا لكنها لم تصب التمساح.

حاولت أن أقنع رسولا أن نمكث مدة أطول هناك نراقب فيها التمساح فربما يترك الملابس. لم يقتنع. كان يقول لي: «لا نستطيع أن نمكث أكثر من هذا في بر موحش كهذا»، وحينما تركنا المكان والملابس قلت له:

- كأنه استولى عليك الخوف يا رسول، لماذا وأنت الذي كبرت مع الكواسج ؟

- ماذا تقول يا اخي، فألف رحمة على أبي الكواسج. فالتمساح الملعون يأكل الإنسان والقرش معا في وجبة واحدة.

- دعنا من الفلوس والملابس، ربما نستطيع أن ننقذ الساعة من يده.

- فاتركها هذه أيضا هدية له.

كان رسول على صواب، فالتمساح كان يشم رائحة البشر من ملابسه ولم يرغب في العودة إلى الماء أبدا.

---

١ ميناء في محافظة بلوشستان الإيرانية على ضفاف المحيط الهندي وقريبة من بلدة سرباز..

ماء الحياة

ثرثرة العجوز أرهقت أعصابي. تسير بنا الحياة بهدوء وراحة نسبية في دارنا التي مساحتها الف متر في ضاحية المدينة وهي تضم مسبحاً ايضاً. و لدينا طائرة خاصة تمكننا من السفر الي مزرعتنا الخاصة في شمال إيران او إلى ضفاف مدينة الاسكندرية للنزهة و الاصطياف كلما شعرنا بالملل و الاعياء خاصة و أن المطار يقع في القرب منا.

ثرثرة العجوز أرهقت أعصابي ! ذات مرة قالت لي: «اكتشف عقار في الولايات المتحدة الاميركية يمنح الإنسان

حياة خالدة، هل بإمكانك اصطحابي إلي هناك لعلي أحظي بحياة خالدة».

و هكذا تهرع اليّ كلما علمت بخبر، أو حدثها أحد بموضوع كهذا. فقلت لها: «يا أمي لم تظهر النتائج الحاسمة بعد، و مثل هذه الاخبار كثيراً ما يتم تناقلها وهي في مرحلة الاختبار».

إلا أن هذه الاجوبة لا تقنعها و أصبحت مزعجة. الويل ثم الويل إذا ما نعي اليها نبأ وفاة احد؛ تثير ضجة كبيرة في البيت، و خلافاً لمثيلاتها في العمر، لا تحبذ المشاركة في مجالس الفاتحة. ولديها أدلتها الخاصة في هذا الشأن: الاول أنها تكره الموت. ثانياً: لا تحب إقامة مجالس العزاء في منتصف الليل، و حسب اعتقادها أن إقامتها في مثل هذا الوقت تخالف أعراف الماضي.

تعيش العجوز في أفخم منام في المدينة، و لديها إنسان آلي يودي لها جميع أعمالها، من طهو و غسل للملابس، دون أن تلمس شيئاً، وهو يقرأ عليها الكتب، و يعزف لها الموسيقي، ويعمل عوضاً من عشرة خدم، و لا يحتاج إلي راتب شهري، أو أجر سوى بطارية لتخزين أشعة الشمس

تشحن سنوياً مرة واحدة.

قبل أيام توفي ابن خالتي، و كان والده كاتباً ذائع الصيت، و طلبت من العجوز المشاركة في مجلس فاتحته الذي اقيم الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، و أن تذهب الي بيت اهل المرحوم احتراماً ومواساة لهم، لكنها أبت أن تفعل ذلك، و عند الحاحي عليها للذهاب صرخت قائلة: أرجوك لا تلح عليّ، لن تطأ قدماي مثل هذه المجالس.

حاولت تهدءتها بالحديث بآخر المستجدات العلمية التي توصّل اليها البشر لعلاج الأمراض المستعصية التي يقلق الإنسان وجودها، لكن حديثي لم يجد نفعاً، و ردت عليّ قائلة: الحديث بالوقاية من الايدز والسرطان، و بأن هذا القرن سيشهد تطوراً و رخاءً هائلاً، لا يعالج خوفي وهلعي من الموت و من أن يفاجئني ملك الموت في الفراش أو عند سيري في حديقة المنزل.

ثرثرة العجوز دمرت أعصابي. لماذا لا أقتلع الهاتف من مكانه حتى لا يعكر صفوي رنينه الذي يليه ظهور صورتها على صفحته. لا، لايمكن أن أفعل هذا، و أشعر بأني مدين لها في كل جزء من حياتي، و لولا رأفتها و حنانها، لأصبح

اليوم مصيري مجهولاً، بعد فقدي أبويّ في عز شبابهما بتحطم طائرة.

هي تقبلت رعايتي، و تكفلتني، و منحتني كل شيء. صباح يوم قبل مغادرتي البيت إلى مكان عملي سألتها عن حالها، فكررت كلامها المعتاد على الموت.

قلت لها: هذا الكلام، من هواجس الشيخوخة وعليك باللعب والتسلية بأشياء أُخرى، و إذا لم ينفعك هذا بشيء فأنا تحت أمرك أنفذ ما تطلبين.

- اتمنى ان لايباغتني الموت في هذه المرحلة من حياتي.

كان طلبها خارج عن استطاعتي؛ لقد فكّرت بالأمر ملياً. فالأطباء في الدول المتقدمة لم يستجيبوا لمثل هذه الطلبات بسهولة و كأنهم يخفون حقنة الوقاية من الموت.

لا أعلم كيف أبدأ و أصبت بالإحجام. الحوادث لن تخبر أحداً و العجوز قد اطلعت بوسائل الإعلام على الاكتشاف الذي توصل إليه العلماء وأخبرت بعلاج للموت في جبال الاطلسي المغربية أو في غابات الهند، بطريقة الترميل و الرياضة النفسية، وأن أصحاب هذه الطريقة تمكنوا من

اكتشاف أسرار الموت الغامضة.

عليّ أن أصمم ماذا سأفعل، لأجد حلاً لهذه المشكله، و قبل السفر إلي القمر يجب أن أجوب صحراء إفريقية و غابات أندونيسيا و قرى آلاسكا النائية و مصر و نـيويورك و بـرلين تنفيذاً لوعدي الذي قطعته لها بقولي: إنه لابد من أن هناك عالماً وراء عالمنا المادي هذا من الممكن علاج الموت فيه.

و أعتقد إذا لم يستطع أحد عـلاج المـوت عـلى الكـرة الأرضية، فلابد أن يوجد في القمر أوالمريخ أو باقي الكواكب السماوية من يقدر على هذا الامر.

أخـيراً، قـررت أن أبـيع كـل مـا أمـلك فـي مـزاد، و أستصحبها إلى حيث تريد.

ليست في أسرتي من يهمني أمره، فقد ذهب أولادي بعد بلوغهم سن الثامنة عشرة كل إلي شأنه. و أما زوجتي التي ما زالت حية ترزق، فإنها مثل أحد أجدادها الهنود ورثت منه معتقد تناسخ الأرواح، تحب العودة إلى الحياة بعد موتها على هيئة طاووس، مثلما روى لهـا الهـنود و تـرغب فـي المـوت المبكر أصلاً، ولا تريد الخوض في موضوع علاجه بتاتاً. بعد مضي قرون على اكتمال الحضارة الإنسانية، ما زال الصدق،

حتى القليل منه، منعدماً تماماً في ما يخص المستجدات العلمية في الجمهورية العالمية، لأنها لم تشرع قوانين أو تصدر أوامر إلى الدول الخاضعة تحت سيطرتها لعدم إخفاء آخر المستجدات العلمية و كتمانها من قبل فئه قليلة على الآخرين، و لو أنها قامت بذلك، لكنا قد علمنا اليوم حقيقة ماء الحياة و سفرنا الي القمر و هل هو مُجدٍ حقيقة أو لا ؟

بدت العجوز قلقة من سفرنا إلى القمر، برغم تقلص متاعبه و مشقاته بالآليات و السيارات الحديثة المتوفرة حالياً على الإنسان، و إذا نفدت عندها المواضيع للكلام، فانها تتحدث بأخطار حوادث المرور التي ربما سنواجهها في الطريق، و نصيحتي لها بأن «هذا خارج عن إرادة البشر و حوادث المرور موجودة طالما الإنسان موجود، و ربما تتقلص أخطارها في المستقبل، لكنها ستظل موجودة أصلاً»، غالباً ما يجدي نفعاً في منعها عن الخوض في الثرثرة والحديث الزائف. وخوفها من الموت فقط دفعها، لتغامر في هذا السفر و تتقبل أخطاره المتوقعة.

أخيراً قالت لي و قد اعترتها حالة خوف هيسترية من الموت:

- مـا يـقال عـن خـلود و بـقاء الفـنانين و العـلماء و الشخصيات الكبرى بعد موتهم أباطيل و تـرهات لا أسـاس لها من الصحة. و ما يقال في هذا الخصوص، هـو لتـضليل عامة الناس ولتسليتهم فقط، و هل يا ترى هناك من يجهل هذا الحقيقة؟ ان الإنسان بتقدمه في العمر و كِبرسنه، تُنهك أعضاء جسمه و يصبح جزءً من الطبيعة، و يفنى تماماً كانه لم يكن موجوداً أصلاً.

اسرعت في جمع عدة السفر، قبل أن يبلغ بالعجوز الخوف من الموت مبلغه، و يؤدي بها إلي الجنون.

استقللنا طائرتنا ألخاصة إلي بـريطانيا، مـحطتنا الاولى في هذا السفر، التي عرفت بصولاتها و جولاتها في العالم قبل قرنين من الزمن عندما شهدت هـذه المـملكة تـطوراً عـلمياً هائلاً، قبل نهاية النصف الاول من القرن العشرين حتى قيل عـنها آنـذاك: «ان الشـمس لا تـغرب فـي الامـبراطـورية البريطانية تلك الدولة المترامية الاطراف ».

رغبة العجوز البالغة التي لا تزال تـرى فـي بـريطانية، صاحبة السيادة على العالم، جعلتنا نقصد لندن عاصمتها. قبل التـوجه إلى مسـتشفى «كـرامـوال»، اسـتصحبتها إلى سـاحة

«ترافالجار » فوجدناها مكتظة بالناس، الكبار جالس بعضهم على مقاعد خاصة فيما استلقى غيرهم على الكراسي و الأطفال ينثرون الحنطة للحمام و غيرها من الاغذية.

جلسنا على مقعد هناك بالقرب من طفلة صغيرة، اقتربت إليها العجوز و سألتها: بنيتي، هل يصاب أحد بالموت في مدينتكم الجميلة ؟

لم تفهم الطلفة ما ترمي إليه العجوز بكلامها هذا، لكنها بعد لحظة أجابت: معدل الموت في بلدنا قليل جداً، و من المحتمل أن يُستأصل بالعلاج في مستقبل قريب جداً.

- لقد بحثت في جميع أرجاء المدينة، و لم أجد مقبرة واحدة، فماذا تصنعون بموتاكم ؟

- هنا، لا توجد مقبرة اساساً.

أخذت العجوز تنصت بدقة لكلام الطفلة الذي أثار فيها الدهشة و حب الاستطلاع.

الطفلة أردفت قائلة: مدينتنا لا تحتوي على مقبرة، و لا يمكنني تصور مكان اسمه مقبرة، و من يموت يدفن في داره.

كلام الطفلة حسم الأمر للعجوز، و لم تتريث حتى نرى

ما يظهره الفحص الطبي من نتائج، و قالت لي:

- ابني، علينا مغادرة هذا البلد فوراً، لأنه ليس فيه من يحل لنا المشكلة.

- ماذا أصابك يا أمي؟ لماذا تريدين الهروب من بريطانية التي كنت تعتبرينها صاحبة السيادة على العالم و تقولين: إنها تقول الكلمة الاولى و الأخيرة في العالم ؟

لم أُطل النقاش، وعلمت أنه غير مجد فيما لم نحصل على أي نتائج مرجوة من سفرنا إلى مصر و الهند و اليابان و كان الموت الغائب الحاضر في جميع هذه الدول، عندها اتضح لي أن هذه الدول عبثاً تحاول التستر والتغطية على عدد الوفيات في بلدانها، و ذلك من أجل جلب السياح فقط.

فمثلاً في مصر يدفن الأموات في سراديب مظلمة وفي الاهرام تحت جنح الظلام، و في الهند تحرق خلسة خشية اتضاح حقيقة الموت هناك.

ثرثرة العجوز دمرت أعصابي. مغادرتي لجميع شؤوني الخاصة، حتى عملي، لم يمنعها من الاستمرار في الكلام المزعج والثرثرة، لكني أخذت اعتاد وضعها هذا، و قررت أن اصطحبها إلى جميع انحاء العالم، أو إلى القمر أو كوكب المريخ

إذا سمحت الأحوال المادية بذلك.

قبل بداية رحلتنا إلى القمر علينا التوجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فهناك محطة مراكب فضائية، أو كما يسميها القدامى «كراج» للسفر إلى كوكب القمر، كما أن فوائد السفر إلى الولايات المتحده لا تقتصر على هذا، بل تشمل ايضاً الاطلاع على أحدث التقنيات و المستجدات العلمية التي توصل إليه الإنسان لعلاج الموت، و ربما حظينا بمن يُجنبنا السفر إلى القمر بتقديمه علاجا لمشكلة موت العجوز.

سافرنا إلى الولايات المتحدة الاميركية، وقد عهدت مستشفى في نيويورك يعمل فيه أحذق و أمهر أطباء جمهورية الكرة الارضية وقد علمت أن بعضهم غادر الأرض مؤخراً باتجاة كوكب القمر لارتفاع درجة الحرارة و تلوث الجو. أخذت العجوز إلى مستشفى «كرنل» في مدينة نيويورك، و بمساعدة وسيط تمكنا من إدخالها إلى قسم الموت في هذا المستشفى، لكننا سرعان ما غادرنا المستشفى بخيبة و ملل بعد مضي ساعات من الوقت لأخذ عينات من دمها و فحصها و دفع تكاليف المستشفى الباهضة. قال الاطباء: إن فصيلة

العجوز الدموية لا تتطابق مع حقنة الوقاية من الموت، و لهذا أخرجوها من هناك.

أصبحت وحيداً مع جثة متلهفة إلى حياة خالدة، كان الكثير من أقرانها في السن متلهفين إلى الموت، و ينهون حياتهم بأيديهم. تعقدت مشكلتنا و نقودي أوشكت على النفاد، كقطعة ثلج ذوبتها أشعة الشمس. يا إلهي، أين أجد ماء الحياة الذي بحث عنه أجدادنا ستة الاف عام. أنا أؤمن تماماً بما قاله العلماء في معالجة الموت، و لكي تتبين صحة ما قالوا يجب أن تمضي سنوات، و تأتي أجيال أخرى، حتى يتضح ما إذا كان سيحظى من حُقن بحقنة الوقاية من الموت، بحياة خالدة أو لا. قطعت تذكرتين لمركبة فضائية تقل المسافرين إلى القمر، كنت تواقاً للسفر إلى هذا الكوكب الجميل، بعدما باءت كل محاولاتنا بالخُسران و قررنا المغامرة، كما كنت آمل أن تحصل العجوز على ما تريده هناك. توجهنا إلى محطة «كيب كندي» للانطلاق و جلسنا في قاعة يعمل كل ما فيها بطريقة آلية، كما أنها ضمت مسافرين من أصول و أعراق مختلفة كان البعض منهم قد اتخذ من الكراسي والأسرة المريحة الموجودة مكاناً للجلوس.

نظرت من خلف النـافذة إلى الصـاروخ الذي كـان مـن المقرر أن يحمل المـركبة الفـضائية، و رأيت اسـم الصـاروخ الذي كتب على جداره الخارجي، و رؤيته جعلتني أضحك من ذوق الامريكيين في اختيار الأسماء، اقتربت العـجوز مـني و همست قائلة: ولدي، إلى أين نحن ذاهبون ؟ لا قدر الله، ربما غضب الرب و جعل المركبة تصطدم بـالصخور السـماوية، و نتلاشى في الفضاء اللامتناهي !

- لا، يا أمي، العمل يسير في المركبة بإشراف دقـيق لأحدث أجهزة الحاسوب العملاقة، و سيكون كل شيء على ما يرام، و لا تجعلي الخوف يأخذ مأخذه منك.

- كيف لا أخاف و أنا لا أملك سوى هـذه النـفس، و تفصلني الان مسافات شاسعة عن وطني ؟

ثرثرة العجوز دمرت أعصابي. ليس الأمـر مـحسوماً، و بإمكاننا استرجاع التذاكر، خاصة و أن هناك من سئم الانتظار في صف التذاكر، و سيسعده شراءها منا.

ازداد شوقي لرؤية كوكب القـمر و اضـطرم حـبه فـي فؤادي فيما اكثرت العجوز اللوم، و بدت تظهر عـلى وجـهها الندامة. سلمت أمرها إلى الاستخارة بمسبحة كانت قد جلبتها

من كربلاء، و قلما تفارقها كالطلسم المقدس؛ و النتيجة كانت سيئة في المرة الأولى خلافاً للمرة الثانية و الثالثة التي كانت جيدة. أُعلن عن ركوب المسافرين في المركبة، و جاءنا صوت موسيقي هادئ من تحت المقاعد والأسرة، جلست قرب نافذة، دون أن أتمكن من رؤية شيء، كل الأشياء كانت مبهمة و عشوائية، وكأن الجميع أصيبوا بنشوة جماعية.

بعد مضي ساعة أو ساعتين من الزمن، ظهرت لنا العجائب و الغرائب و قد نفخت روح الوجود في الفضاء. فقدنا الزمان بليله و نهاره، و بدأت الالوان المختلفة اللعب والمرح في مجرة لا تعرف النهاية، و أخذت مئات الكواكب و النجوم و الشهب، ترقص في الفضاء. ربما كانت هناك عيون كائن حكيم، تنظر إلينا من خلف هذا الكون الذي يشبه الغابة، و يرقب أعمالنا نحن أصحاب الأرض، ويسخر من تصرفاتنا. ظهرت حلقات بنفسجية اللون تقع في عناقيد رمادية و تدور حول هالة صفراء تتصل بنهر نيلي، ثم بمحيط أخضر و هكذا بدا كل شي كأنه آخذٌ في الاتساع، و بدت النجوم كأنها تخفي نفسها من الالوان تلعب معها لعبة عشوائية. تذكرت جدي المسكين الذي مات ولم يزر مدينة كربلاء؛ ولد في الأهواز و

مات و دُفن هناك تحت اطنان من ترابها الأسود الدافئ. أخذنا ندخل كوكب القمر بعد اجتيازنا كوكب الأرض و تركها وراءنا ككرة صغيرة محقرة. المركبة الفضائية تطوي مسافات الفضاء ليل نهار دون وقفة، و كانت الأمور جميعها تسير بالضغط على الأزرار. بعد مضي ٤٨ ساعة من انطلاقنا من الأرض أعلن عن اقترابنا إلى كوكب القمر، و قيل أيضاً إن محل الهبوط يقع في البحر الهادئ، المكان الذي هبطت فيه سفينة «آبولو» قبل مئة و بضعة أعوام، و أصبح اليوم محطة كبيرة للسفن.

أهدت جدتي الفاتحة إلى أرواح نيل آرمسترانج و ادوين آلدرين اول من وطئت أقدامهما هذا المكان؛ كما أن أحداً من الأرض أهدى لأرواحنا الفاتحة. نزل المسافرون من المركبة و بعدما غيّرنا ملابسنا توجهنا إلى الأرض المعهودة، و هي منطقة العواصف، استقللنا آلات تشبة تلك التي تستعمل للتزلج على الثلج في الأرض للوصول إلى هناك. وفي طريقنا إليها، مررنا بمستوطنات ضمت علماء كانوا يقومون ببحوث و اختبارات. الحاسوب يظهر لنا اسم ومواصفات كل مستوطنة نمر بها، ويقول: إنهم علماء أرسلتهم حكومة كوكب الأرض

للقيام بالأبحاث والدراسات و التنقيب.

قيل لنا في الولايات المتحدة الامريكية ان ساكني حي العواصف ليسوا جميعا من العلماء، بل هناك من ذهب في زمن الفراعنة إلى هذا المكان، ونسب بعضهم اصل هؤلاء إلى كواكب أخرى غير الأرض.

بعد استراحة قصيرة في أحد الاحياء واصلنا سيرنا مرة أُخرى.

مستوطنة العواصف، مكان واسع نسبياً، يحفظها غطاء خاص، من العواصف و أشعة الشمس. عند مدخلها لافتة كتب عليها اسم و شعار المدينة بلغة مجهولة؛ جدتي طلبت مني عدم مواصلة السير و العودة من هناك و لم توافق على دخول المدينة إلا بعد ما شرحت لها أهمية هدفنا الذي طوينا المسافات الشاسعة من أجله و تجشمنا عناء الطريق للوصول إليه، و ترجيتها طويلاً، وعندما أبدت موافقتها على دخول المدينة سألتني:

- يا ولدي أين هنا ؟ و لماذا أهل هذا المكان على هذا الشكل و الهيئة كأنهما آدم و حواء؟ هل هذا المكان هو الجنة؟

فكّرت ربما ظللنا الطريق، أو ربما كنا نمشي و نـطوي المسافات في سفر الموت، و هذا العالم الذي نحن فيه الآن هو عالم ما بعد الموت ؟ و إذا كان ما ظننته صحيحاً، فـهذا يعني أننا نبحث في كُنه الموت عن علاج له. وصلنا إلى مكان في تلك المدينة، تكثر فيه دور الضيافة تشبه كثيراً مـثيلاتها الموجودة في جنوب إيران، في أحدها رأينا شيخاً بلحية كـثة بيضاء يتوسط جماعة من الناس؛ القينا عليه التحية و السلام، لكنه لم يفهم ما نرمي إليـه، رفـعنا ايـدينا مـثلما المسـلمون يلقون التحية، كما أننا فعلنا ذلك مثلما يفعل النصاري عند أداء التحية و السلام، فهذه المرة فهم قصدنا، ورحب بـنا، و أمـر إنساناً آلياً جميلاً أن يحضرلنا الاقراص المنشطة لإروئنا من العطش بعد ما أجلسنا إلى جنبه، ثـم سألنـا: مـن أيـن انـتما قادمان ؟

شرحت له تفاصيل رحلتنا من بدايتها إلى نـهايتها كـما قلت له: إن العجوز هي التي ورطتني بما أنا فيه الآن دون أن أُخبره بشيء من خوفها من الموت. بعد تعارفنا و انتهائنا من المجاملات حاولت أن أسأله عن الموت بطريقة بـعيدة عـن الإزعاج و التطفل، فقلت:

- تركت بلدي و كوكبي لغرض خاص، فهل تسمح لي بسؤال ؟

- تفضل، على الرحب و السعة!

- في الحقيقة، بحثت طويلاً في خارطة شاشة الكمبيوتر، و لم أعثر على مقبرة أو مكان للقبور.

- أجل هذا صحيح، لا مقبرة هنا!

- هل هذا يعني انكم تقومون بدفن موتاكم في البيوت؟

- لا !

- أكيد تقومون بإحراقها ؟

- نحن هنا بلا مشكلة و خلافاً لما كانت عليه الأحوال في السابق، الآن لا يولد أحد و لا يموت، و الحي و الميت سواء. في الحقيقة ان الجميع احياء يؤدون أعمالهم بصورة جيدة. و إذا بحثتم جميع أرجاء المستوطنة لن تعثروا على قبر واحد، لا في بيت و لا في خارجه و لا في شارع أو صحراء لن تجدوا مقبرة.

نظرت إلي العجوز خلسة وأنا أُصغي لكلام الشيخ، فوجدت أسارير وجهها أخذت تتفتح فرحاً، وارتسمت على

شفتيها ابتسامة فارقتهما منذ زمن طويل.

ثم توجهت نحوي وقالت:

- يا بنُي، هذه مستوطنة رائعة، دعنا نقيم هنا ولا نبارح هذا المكان الي مكان آخر.

قلت للشيخ: أيمكننا الحصول على مكان نأوي إليه؟

- هذه ارض الله الواسعه كلها تحت تصرفكم. اقيما حيث شئتما وطاب لكما المقام، و إعلما ان امر استقطاب و اسكان الناس هو أحد اهدافنا. لكن قبل كل شيء قل لي هل لك من مهنة ؟

- انا رجل فقير ذودخل محدود، و قد أنفقت كل ما املك لدفع تكاليف هذا السفر، و حالياً أعيش مع جدتي ولكن أجيد العمل في صناعة النفط والمعادن إلي حد الاتقان.

فأمر الشيخ بتخصيص مكان لنا للسكن. نحن ايضاً شكرنا له سعيه و ابتهلت جدتي له بدوام الصحة والسلامة، و قالت لي:

- يا لها من مستوطنة رائعة، لا موت فيها، و لا تحتوي على مقبرة، والناس تسرح وتمرح دون هم ولاغم، سأُمضي اوقاتي هنا بالراحة و الهناء دون أن يشغل بالي الموت

اللعين، فقد أصبح بإمكاني الآن ان استمتع بالحياة إلى الأبد.

في سبيل الاطمئنان والسكينة قال لنا الشيخ: هنا تكثر معادن التنقيب وبإمكانك أن تبدأ عملك منذ الغد على نظامنا المألوف: ثماني ساعات عمل وثماني ساعات مخصصة للنوم، كما ان الساعات الثماني المتبقية هي للترفية والاستمتاع.

باشرت عملي في معادن جبال القمر وكل يوم ارتدي ملابس الفضاء الخاصة في بوابة المدينة. واستعد لعمل لايتطلب الجهد الجسدي، وانما يسير بالطريقة الآلية في جميع مراحله. وبعد مدة تعرفت على احدى جميلات القمر تشبه القمر نفسه، وقررنا الزواج، لكنني انتظرت حتى تخطبني وفقاً للاعراف والتقاليد السائدة لدى اهل هذا المكان.

العجوز تكاد أن تطير من شدة الفرح والسرور، وانشرح صدرها وتحسن خلقها وتعاملها مع الآخرين، وكأنها ليست تلك التي عهدتها في السابق.

وفي أحد الأيام قالت:

- ولدي، تخلصنا من الموت وضجيج كوكب الأرض و أحزان المقابر، فالامر جيد جداً يستحق تحمل مشكلة العيش مع أناس لايتوافق مظهرهم مع تقاليدنا واعرافنا في ما يخص المظهر، وإنه أفضل لنا بكثير من الموت.

حان موعد زواجي بعد أيام من الخطوبة، وخُصص لنا منزل للسكن. فالعجوز تعيش في غرفة من بيوت القمر الضيقة، وكأنما في قصر فسيح، واستقبلت عروسها الحورية بحفاوة، واعتبرت قدومها الي منزلنا إقبال خير. و اخذت تجلس معها يتجاذبان أطراف الحديث كل مساء في الغرفة الفضائية الذهبية في انتظار عودتي من العمل، وعندها يزيل استقبالهن لي وترحيبهن بي آثار التعب المضني.

ثرثرة العجوز دمرت أعصابي، فمع مضي أشهر على إقامتنا في القمر ما زالت تشكو من مظهر ساكنيه و تعذبها هذه المسألة. لكن هذا العذاب لم يدفعها لكي تسأل عروسها عن السبب الذي يجعلهم يعيشون هكذا؛ أنا ايضاَ كنت اجهله. مضت أيام على هذا الحال حتى أصيبت العجوز بمرض، وأمست طريحة الفراش. و في يوم اشتد فيه مرضها قلت لها قبل ذهابي للعمل:

- هل انت بخير ؟ يبدو لي اليوم انك لست على ما يرام؟

- أجل، أنا كذلك، عندما أفقت من النوم صباحاً شعرت وكأن رجليّ قد شلّت.

- ألم يكن السهر و السهاد السبب في ذلك ؟

- لا، أنا في نومي لا اعاني من شيء وانام بصورة طبيعية.

حاولت عدم التطرق الي موضوع المرض وقلت للعجوزة:

- جدتي العزيزه، ما هو رأيك لو تخلفت عن الذهاب للعمل وبقيت هنا لاعتني بك ؟

زوجتي قالت:

- انا موجودة هنا، و سأقوم بكل واجبات العناية بها، وليس هناك ما يستدعي عدم الذهاب إلي العمل. تأملت وفكرت هنيهة، ثم كررت زوجتي قولها مرة أخرى وقالت:

- لا حاجة لنا بوجودك هنا، وأنا سوف اوفر لها ما تريده وما تحتاجه.

بعد وداع قصير اتجهت إلى خارج المستوطنة، وخلال

ساعات العمل داهمني شعور بالقلق، وقلت لنفسي: «ماذا سيحصُل لو ماتت جدتي هنا وحيدة فريدة بين أناس عراة؟ من المؤكد سوف افتضح شر فضيحة».

ولم يفارقني هذا الشعور بالقلق على العجوز، حتى في طريق عودتي إلى البيت، استقبلتني زوجتي مرحبة، وسألتها عن حالة جدتي الصحية، فقالت:

- حالفنا الحظ في ذلك و استطعنا تحليلها، و لو لم يكن كذلك لحرمت.

سألتها بأستغراب ودهشة: حللتم ماذا ؟

- لحمها !

كدت ان أُصاب بالجنون من شدة الاستغراب عند سماعي هذه الكلمات و سألتها:

- لحم ماذا ؟

أجابتني بكل برودة وهدوء:

- لحم العجوز، نقلناها بسرعة إلى محل الذبح، و جمدنا لحمها في ثلاجة المدينة للاستهلاك العام، وكان نصيبنا منها فخذاً وضعته في ثلاجتنا الخاصة.

قلت مع نفسي: «كم كنت مغفلاً يا رجل، هؤلاء القوم

يأكلون الإنسان حياً وينهون حياته بأنفسهم دون أن ينتظروا موته ».

فتحت الثلاجة لأجد فخذ العجوز داخلها، فـيما وقـفت زوجتي خلفي وأخذت تطيل النظر فيّ.

همست مع نفسي: «ايها العجوز المسكينة، هذا كل ما جئت تطلبينة. سيأكل اليوم جميع اهل المستوطنة من لحمك ويملؤون بطونهم منه كما انهم جادوا عليّ بهذا الفخذ.

عندها خطر ببالي بيت شعر من أسطورة من أساطيرنا المحلية الذي مفاده: فخذ في النار، و فخذ في الدار.

عالم غريب، وربما سيكون مصيري مصير جدتي، فعليّ أن أعود الي وطني بسرعة واغادر هذا المكان، ولكن يا تري هل أستطيع فعل ذلك ؟

سماء افريقية

في أحد الأيام الأخيرة لشهر اكتوبر عدت إلى نايروبي. كان جسدي منهكا عقب اسبوع متعب من التحضير والصعود إلى قمة كليمانجارو. بعد استراحة قصيرة ظهرا،انفصلت عن زملائي في المجموعة وذهبت إلى المقبرة.

كنت أسير بين القبور في القسم الخاص بالمسلمين حيث شاهدت على أحدها، صخرة رخامية بيضاء، رسم عليها صورة بورترية للشيخ جاسم الكويتي و اسمه تحتها. القبر حديث جدا حيث يمكن مشاهدة بقايا أكاليل زهور متناثرة

عليه. لم تختلف صورة الشيخ و تلك التي رأيتها قبل اسبوع. جلست إلى جانب القبر. كانت المقبرة خالية موحشة ماعدا الحارس الذي كان جالسا في المدخل.

الشمس الافريقية المحرقة كانت تجلدني بأسواطها السوداء. استظللت بشجرة قريبة للقبر حيث لم تتمكن عيناي أن تترك صورة الشيخ التي نُقشت ببراعة على الرخام الأبيض؛ و فجأة رأيت الشيخ خارجا من القبر مرتديا دشداشة و كوفية بيضاء فوقها عقال أسود. كان وقرا في وقفته، وخاطبني متلعثما: أنتم متسلقي الجبال تركتموني وحيدا، أنتم يا أشباه الرفاق تركتموني فريسة للوحوش، لتتفرجوا عليّ. سأنتقم منكم آجلا أم عاجلا.

و سار الشيخ صوبي كي يعلقني بعقاله على الشجرة ويخنقني.

رغبت في أن أصرخ وأقول: يا شيخ، إننا كنا أضعف من أن نستطيع مواجهة تلك الأغوال.

لم أستطع أن أفتح فمي حيث الكلمات كانت تنكسر، والصوت يخمد في حنجرتي.

وعندما غاب شبح الشيخ عني شعرت بحرقة في بلعومي انتابني الخوف من وحشة المقبرة و تهديد الشيخ جاسم، فغادرت المكان بسرعة.

رأيت الشيخ جاسما أول مرة في الحدود الصومالية ـ الكينية. عرفت أنه كويتيّ، ويسافر وحيدا. كانت سيارته من أحدث طراز من نوع «شروكي شيف» و أرقى سيارة قياسا للسيارات التي شاهدتها في الحدود.

فعندما كان موظفو الجمارك في كينيا يبعثرون حقائبنا و أكياس نومنا على الأرض جاءني سائلا:

– من أين أنتم؟

قلت له بالعربية: من إيران.

انفتحت أساريره وكأنه كان ينتظر زميلا في رحلته في كينيا، فتح الحديث قائلا: «لم تسنح لي الفرصة في الصومال كي أوظف مرشدا أو بالأحرى مرافقا لي في الرحلة، فإنني أقطع هذا الطريق مرتين في العام. لاأثق بالكينيين كثيرا، فأخطأت في عدم توظيفي مرافقا، لكن الله دائما هو حلال المشكلات».

أخرج سيجارة زنوبيا من جيبه وعليها علامة هافانا. قدمها لي، فقلت له: لا أدخن.

أخذ نفسا منها سائلا: إلى أين تذهبون؟

- إلى قمة كليمنجارو.

انكمشت أساريره من عدم التصديق، و سأل مرة أخرى:

- يعني أنكم ستصعدون إلى القمة؟!

- بالضبط.

- فهذا يعني أننا سنكون معا حتى مدينة نيروبي.

يبدو أنه كان يخجل أن يقول لي:« يبدو أنكم مجانين لأنكم تتركون المدن و الكازينوهات و الشوارع، لتصعدوا القمم»، لكن وجهه كان يبوح بذلك.

ماعدا «شروكي» الشيخ و جيبنا الذي كان يتسع بصعوبة لستة اشخاص لايمكن لك أن تشاهد سيارة تمر من الطريق الذي يشق الغابة إلا بالندرة.

أصر الشيخ كي أرافقه في «الشروكي». غادرت أصدقائي الإيرانيين، ليتسع مكانهم في الجيب و هم سائرون وراءنا.

كلما ولجنا في الأراضي الكينية، أصبحت الغابات أكثف،

والسماء غابت وراء مظلة الأشجار الوارفة. أشعة الشمس المتناثرة ترقص كخيوط بيض شفافة في الفضاء الملون للغابات، مانحة أوراق الأشجار نضارة مميزة. أجمل قوس قزح أرضي بأطياف سمائية ملونة. رائحة اللبُان العبقة تملأ المكان. كان امتزاج تلك الروائح و المشاهد ينعشني ويشعرني بالعروج إلى السماء بعيدا عن الأرض؛ و ذلك في سماء افريقية!

رأيت البهجة أيضا في وجه صديقي الكويتي الذي صعّد زجاج السيارة لإحساسه بالأجواء الرطبة في الغابة، وقال دون مقدمة:

- لايمكن لوحش في الغابة أن يصل إلى سيارتي، فقد سبق أن سرت بها معظم غابات كينيا. ولاتنس أن زجاج السيارة مضاد للرصاص. الطبيعة جميلة جدا، لكن أدعو الله ألايداهمنا الليل في الغابة. الله أرسلك لي، و إلا كان عليّ أن أقضي الليل في الحدود. فأنت الليلة ضيفي؛ وعند وصولنا إلى نيروبي سنذهب إلى مزرعتي فورا. وسترى فيها لحظة الفجر، ولمعان الموز كالذهب عند شروق الشمس، مشهد خلاب ستشاهده إن شاء الله. مكان ناء، بعيد عن الضوضاء. لدي

مزرعة أخرى في جنوب افريقية تماثل هذه المزرعة، ولا أُغالي إذا قلت لك إنني منذ أعوام أقوم بتأمين نصف الموز المصدر إلى الشرق الأوسط، لكنني في الواقع سئمت هذا العمل لانه لامستقبل لتجارة الموز، ولذا أخطط للاستثمار في مناجم الذهب في ساحل العاج.

قلل الشيخ من سرعة السيارة بعد مشاهدته اللوحة الخاصة بمرور البهائم و الوحوش قائلا:

- لايمكن أن نعتمد على النفط أيضا، لأنه سينفد آجلا أم عاجلا.

ثم ركن السيارة على قارعة الطريق، وأخرج بندقية وكاميرا من حقيبته، وباشر التصوير. اغتنمت الفرصة، و سحبت من حقيبتي علبة طعام اشتريتها من الحدود. فلم أتناول شيئا منذ عدة ساعات. لم أشاهد شيئا مكتوبا على العلبة يظهر ما فيها من محتويات، حيث اشتريتها لسبب صورة المقانق عليها. وضعت العلبة على كبوت السيارة، و أخذت أفتحها بالسكين. ذهلت مما رأيت في العلبة؛ حيث كان فيها كل شي إلا المقانق. قذفتها جانبا لأن مارأيته فيها أثار غثياني.

ذهبت إلى الشيخ الذي كان منهمكا في التصوير. ثم رجعت إلى السيارة حيث شاهدت حية سوداء كريهة المنظر، سميكة كالمقانق تدب على كبوت السيارة. صرخت: «حيّة حيّة، شيخ جاسم حيّة». هم الشيخ صوبي سائلا:« ماذا حدث؟» كررت:« حيّة حيّة». قال: «لاتقلق، سيطر على أعصابك، سوف ترى الكثير من هذه الاشياء هنا» وأخذ بيدي لنركب السيارة من بابها الخلفي.

حاولت الحية أن تزحف على الزجاج لكن دون جدوى، فقد كانت تتزحلق، وتسقط على الكبوت، وتظهر لسانها للتهديد كل مرة تحاول الصعود فيها. لكن سرعان ما انقذفت الحية و العلبة معا على الطريق بعد أن سارت السيارة بسرعة.

سألني الشيخ: لماذا لم تأكل المعلبة؟

- لم تكن مقانق.

- ماذا إذا؟

- لم أعرف، شي يشبه الحيّة!

أصبت بالغثيان مرة أخرى عند تذكري المشهد السابق، وقدم الشيخ لي علبة عصير أناناس و موزة و جوز الهند لأسدّ بها رمقي. لم أر نهاية للطريق المغطى بأوراق الأشجار

الخريفية الملونة. كنت مستغرقا في جمال الغابة عندما شتت أفكاري صوت كابح السيارة واصطكاك الإطارات على الأرض. وقفت سيارتنا وسيارة الجيب التي كانت تسير وراءنا، وقال الشيخ: انظر إلى الأمام، هناك قطيع من الفيلة يعبرن الطريق؛ افيال كبيرة وصغيرة، آباء و أبناء وأمهات. مشهد جميل! أليس كذلك؟

وفيما أنا أعاني صدمة الحيّة السوداء قلت له:

- جميل و خطير!

- جميل جدا، عليّ أن أذهب إلى الأمام، لأتمكن من تصوير هذا المشهد الجميل.

- لكن ياشيخ جاسم إن لوحة الخطر تفيد بأننا يجب أن نتوقف هنا جنب اللوحة حتى تعبر الفيلة.

- دعنا من اللوحة، سبق أن طاردتني الأسود و النمور ولم تبلغ «الشيروكي شيف» فما بالك من الفيلة. فإذا أنت خائف تستطيع أن تنزل من سيارتي، و تلتحق برفاقك. لايمكن أن أغض الطرف عن هذا المنظر، و أريد أن أعرض الفيلم على زوجتي وأطفالي في نيروبي. إنني أحتفظ بمجموعة متنوعة من هذه الأفلام: قردة تلعب فوق الأشجار

و تضحك من ذقون الناس، عيون لنمر تسطع في العتمة، وزرافات تغلق الطريق.

فلم أنبس ببنت شفة، إذ لم أتمكن من تفهيمه بأن تسلق الجبل و الوصول إلى القمة أهم لي من أي شيء آخر. ركنا الجيب على قارعة الطريق، و اخذنا ننظر إلى الشيخ، تقدم الشيخ نحو مئتي متر، متقربا من الفيلة.

أضواء سيارته كانت مشتعلة، ليتمكن من التصوير من داخلها. لكن لم تمض لحظات من التصوير،حتى سمعنا أصداء عربدات الفيلة تنعكس في الغابة، ثم صوت رصاصة خرقت سكوتها. سقط أحد الأفيال على الأرض. لكن الرصاصة الثانية لم تتمكن من اغتيال الفيل الثاني. هاجم الفيل المصدوم الغاضب و فيلان آخران سيارة الشيخ، وأخذن يضربنها بخراطيمهن حيث تحول «الشيروكي شيف» إلى علبة محطمة يتلاعب بها الفيلة ككرة قدم.

فعندما ابتعدت الأفيال وغابت بين الأدغال، تقدمنا إلى سيارة الشيخ التي لم يبق منها قطعة سليمة. انتزعنا بصعوبة جثة الشيخ من بين انقاذ «الشيروكي شيف» و وضعناها في أحد أكياس النوم و وثقناها على حمالة الأثقال فوق سيارتنا،

وغادرنا المكان بسرعة فـائقة. كـان عـلينا أن نـوصل الجـثة المحطمة في أسرع فرصة إلى أهله كي يتم دفنها فورا.

ومنذ ذلك الحادث لم يفارقني الشبح الأبـيض ليـعتم عليّ الأيام و اللـيالي بـين الحـين والآخـر، وليـذكرني بـروح المرحوم جاسم وهو يقرأ عليّ شعرا أنشده بعد رِحيله، يستهل بمصرع:أنتم يا متسلقي الجبال لستم رفاقا، بل شـبه رفـاق.. أنتم.. أنتم.

القطار

القطار يدق ويسحق الطريق؛ دق الحديد على الحديد. والعربة كالمهد تهزك في نفق الزمن الضيق؛ الأصوات تزعج أعصابك لكنك تتعود على صوت التهويدة الحديدية. تستطيع أن تنام لتهرب من ثرثرة الطالبين الجامعيين الجالسين أمامك في العربة. ياله من نفق طويل جدا لم ينته. يعلن الليل عن وجوده القاتم من وراء الزجاج وتمسي الدنيا ظلمات؛ لا أرى بعد الآن شيئا. القطار يدق ويسحق الطريق.

أجد نفسي جنب النافذة، يظهر نهر عظيم أمام عيني،

أمواجه الهادرة تتخطى الشاطئ وتبلل عجلات القطار، لكن القطار لايتوقف؛ ويسير بسرعة جنونية. أشعر بأنني انتزعت من الزمان والمكان؛ يالها من طاقة عظيمة، لم ار في حياتي قطارا كهذا.

في نقطة ما شعرت بأنه قد توقف وذلك أثر سرعته الفائقة جدا. أستطيع الآن أن أرى الناس بشكل أفضل. جموع غفيرة من الناس تقف على الشاطئ محدقة في مياه النهر.

نظرت إليهم باستغراب؛ كان البعض يبحث في الشاطئ عن حصاة أو حجر ليرجم شيئا ما في النهر. لون الماء لم يكن أزرق ولا بني؛ كان ذا لون آخر، يبدو وكأنه نيلي دون أن يكون نهر النيل.

هل كان نهر دجلة أم نهر كارون ؟ لا أدري، لم استطع أن أعرف النهر. أسمع صوتا قريبا جدا يقول:

- قاموا بتعصيب عينيه وكانت تبدو على جسده آثار الضرب والركل.

كانت عيون الناس تتألق فرحا، كأنما يشاهدون شريطا سينمائيا ممتعا. لم أستطع أن أسأل أحدا عما يجري حيث

شعرت بتعقد لساني، كما أني لم أعرف أحدا من هؤلاء الناس ولا الأمكنة. الماء يزداد احمرارا مع الوقت وترقص الأسماك و أسماك القرش في المياه القرمزية.

رأيت العس وهم راكبون الخيول يلوحون بالأسواط ويحثون الناس ليرجموا النهر و ما فيه.

أسمع الصوت مرة أخرى:

- بعد الإعدام قذفوه في النهر حتى لا يبقى منه أثر.

بعد لحظات تزداد الجموع عددا، وتنهال الأحجار بكثافة على النهر، حيث يعلو الضجيج باصطدامها بسطح الماء. يبدو لي أن غشاوة من الجليد والزجاج كانت تغطي المياه التي أخذت تنقشع أثر اصطدام الأحجار بها من كل حدب وصوب. الطقس لم يكن باردا والناس تتفوه بكلام لم أفهمه؛ أشعر وكأنني غريب بينهم أو كأنني جئت من كرة أخرى.

ومن غرائب الأمور، إنني كنت أرى الجميع ولم يرني أحد. تابعت مسيرة نظراتهم؛ فرحون لا مبالون، واقفون على ضفتي النهر، محدقون في المياه.

تغير الطقس فجأة، هبت زوبعة وملأ الدخان الأسود

المكان. شعرت لهنيئة أنني سأختنق، لكن الزوبعة لم تستمر وانكشف الهواء بعد قليل. لم أكن أتصور أن جثة إنسان ما تطفو على المياه ولا تغرق.

الجثة لم تكن سليمة وكانت تنقصها الرجلان واليدان، غير أن الشي الذي أدهشني كثيرا أنها كانت لا تزال تتنفس وفيها نوع من الحياة.

أسمع الصوت مرة ثالثة:

- خنقوه بسبب أفكاره.

حدقت بعناية، فرأيت يد الغريق ورجله اليمنى في صوب ويده ورجله اليسرى في صوب آخر، عائمات على سطح المياه.

كانت الجثة تقاوم الموت رغم تقطعها. هل كان الغريق حيا ؟ لم أستطع التفكير بهذا الأمر حيث لم يكن أي معنى للتفكير؛ إذ كنت أرى في وجوه الناس السرور والغبطة المقززة.

يعم الضجيج و يضطرب الناس على حين غرة؛ وتتجه النظرات إلى مكان ما في وسط النهر حيث الصدر والرأس عائمين. رأيت شفتيه الداكنتين تتحركان، كأنهما تترنمان

بالدعاء. انـدهشت والنـاس جـميعا؛ يـا له مـن أمـر غـريب.. استغفرالله.. هـرب البـعض وبـقي البـعض الآخـر وذلك ربـما بسبب الفضول كي يتعرفوا على حقيقة الأمور.

أخذ صوت الغريق يرتفع رويدا رويدا، غير أن كلامه لم يزل مبهما ولم أفهم منه شيئا.

سيطر صمت رهيب على ضفتي النهر؛ لم يـتفوه أحـد ببنت شفة، حتى العس أصبحوا مثل الخرسان وبدت الجموع الغفيرة كأنها أموات لا روح لها بينما تحول الغريق شبه الميت إلى حي يرزق.

أخذ الصوت يتضح رويدا رويدا حتى سمعته يقول:

- أنا الحق، أنا الحق.

كنت تواقا لأعرف الحقيقة و أنه كيف تنطق هذه الجثة المتقطعة الأوصال بلفظة «أنا الحق».

كنت مستغرقا في تلك الحالة حتى اصطدم حجر كبير بسطح الماء الزجاجي.

فتحت عيني وقفزت عن الكرسي؛ رأيت بعض الشقوق على زجاج نافذة العربة.

والطالبان لا يـزالان يـثرثران والقـطار يـدق ويسـحق الطريق.

ذكريات المقبرة

بعد رحيل والدة زوجتي التي توفيت اثـر جـلطة قـلبية، باشرت بقراءة كتاب صغير و مضجر هو «ذكريات المقبرة»:

الأرض ليست صلبة، بل هشة و متحركة، غيرمحكمة، لاتعرف الثبات، تهتز و ترقص. الناس يدورون حول انفسهم، مذعورين، يبكون، يذهبون و يعودون إلى مكـانهم. لاثـبات لاي شي. يرتجف الجميع اينما وجدوا؛ الواقفون و الجالسون. تهتز المباني و السيارات و الاشجار والنخيل والناس.

في بيتك لاتستطيع ان تـتمالك نـفسك لتـذهب مـن

غرفة إلى غرفة. تشعر بالسخرية لكنك لاتضحك، بل تبكي في اعماق نفسك. الجميع مضطرب، مذهول و النساء و الاطفال يصرخون. الجميع يسأل اين سيكون موقعي؟

«وزلزلت الأرض زلزالها»؛ يتلو احدهم سورة الزلزلة ويصمت بعد ذلك لعله يهدأ غضب الرب. لاتظهر الكلاب و القطط اي علائم للزلزال. الجميع يعلم و يقول ان هذه المنطقة ليست منطقة زلازل وحتى لو حدث زلزال ما، لم يكن شديدا كما هو الان.

فماذا تقول انت يا مسكين يا خفاجة؟ يبدو ان هذا هو انتقام الرب لذنوب بني آدم. قم فورا و ارجع إلى مسقط رأسك؛ ربما هناك اكثر امنا.

يخرج خفاجة من البيت كزورق بلاشراع ليصل إلى الشارع الرئيسي. هذاهو المحيط الهادر! يختلط الناس بالحديد. هذاهو المحشر الكبير! يسعى الجميع، الصغير و الكبير و الشاب و الشيخ، ان يخرج من جهنم المرتجة. لم تكن يوما من الايام، الاحياء والشوارع ممتلئة بالناس كما هي الان. تتلوى المدينة كالمصاب بالغثيان الذي لا ينقطع وتقييء كل ما في بطنها. تقييء الحضارة و البشر و السيارات.

تصاب المدينة بالزحار وينعقد لسانها. الجميع ينكفي على نفسه. فاحد الذين لم يصب بالزحار و لم ينعقد لسانه يقول: «قصفوا مخازن الذخيرة». المحيط البشري الهائج يسير نحو البوابة الشرقية للمدينة ليجري بعد ذلك في الصحراء. جميع السيارات و الناس و الكلاب و القطط و الطيور و الاحياء و الموتى تسير نحو البوابة: بوابة تُستر. لكن عليك انت يا مسكين و يا بائس، ان تسبح خلاف تيار الماء. لايذهب احد نحو بوابة الموت. يسيطر الخوف على خفاجة. فهو ينتظر ليهدأ غضب الارباب.

تنقطع الكهرباء عن المدينة لتغرق في ظلام دامس. لابد ان زينب و الاطفال يسمعون اخبار مدينتنا. ماذا يمكن ان افعل في هذا الليل الحندس؟ النسيم ينقل اخبار الحرب الينا من ثقوب النافذة: مصرع عروس و عريس في الحمام؛ القصف يقتل اسرة باكملها ويوجد ثقبا في الجسر المعلق على نهر كارون. اشعر بثقب في معدتي. اشعة النور الحادة تزعج عيوني. الأرض التي كانت تهتز كالمهد اصبحت راكدة. استقر العالم و شعرت قدما خفاجة بصلابة الأرض. خرج من بيته؛ فلم ير احدا في المدينة ماعدا بعض السحليات و الخنافس

التـــي تــتسكع عـلى الارصـفة. لم يـتخلخل الهـدوء اللـيلي المتأرجح الا اثر اصوات سيارات الاسعاف. فيذهب خفاجة إلى موقف السيارات الذي يقع – من سوء حـظه – بـالقرب مـن مخازن الذخيرة.

مقبرة «سيدهادي» تئن تحت ثقل القبور و تتسع يوما بعد يوم وهي تتقدم لتقترب من الطـريق الرئـيسي. المـوتى يشعرون بالضيق و يسأل المسافرون فـي حـافلتنا الصـغيرة، يسألون في قرارة انفسهم: أين مواقعنا؟ مجموعة من الاشباح البيض والسود ترقص رقصة «الهوسة» على الأرض الخاوية للمقبرة. الضجيج يملأ الحافلة. اموات الغـد يـودعون امـوات اليوم. و تظهر الأرض نهما كبيرا لالتهام البشر. يقول العجوز الجالس إلى جنبي:

– الشهر الماضي عندما كنت امضي من هذا الطريق، كانت القنابل تنهمر كالمطر وكان العراقيون يقصفون المدينة من معسكر «حميد».

– بل اكثر من ذلك؛ فقد كانت مدفعيتهم بالقرب من معمل «نَوارد» لصفائح الحديد وهو أقرب بكثير من معسكر حميد. كانوا يضربون بالهاون مـن نـوع «الخـمسة خـمسة»،

حيث كانت تتساقط في كل مكان؛ على الطريق العام و على اطرافه.

يسود الحافلة صمت خانق وتتسرب فيها روح المقبرة ويضج انين المقبرة في اذني. فالمقبرة هي نهاية جميع الناس و الاصوات؛ وارضها هشة ورملية. فقد قصمت السيول و البشر، ظهر الأرض بثقلها. فانني استشم من الاصوات رائحة الجثث النتنة.

يصل خفاجة إلى مسقط رأسه حيث يقال بانها المدينة التي لايشملها القصف. لكنه وفي الصباح التالي رأى نفسه مرة أُخرى في المقبرة ذاتها. فقد استيقظ فجرا اثر سماعه اولى القنابل التي تساقطت على مدينته. فقد كان فرحا لوجود الاطفال في بيت جدتهم. ويبدو ان الوضع اكثر امنا في اطراف المدينة. يتجه خفاجة و زوجته مرتبكان إلى بيت الجدة. مدينة خفاجة تحترق في النيران. يذهبان مشيا على الاقدام من الطريق الساحلي المنخفض وذلك لتفادي الخطر. فشعلة النيران تضي ليلهما.

- « مدينتي، مدينة بلا اسوار، مدينة الزلازل و النيران و الموت الصامت للانسان».

المرأة تخاطبه بغضب: « دعنا وهذا الهراء، نـحن الان في خضم الحرب».

لم تنقص خفاجة فـي المـقبرة الا القـيود والسـلاسل؛ شعره مشعث وحذاءه مهترئ و قـميصه المـفتوحة ازراره إلى النصف، وسخ يتدلى خارج سرواله. يبدو انه خارج للتو من قبر اطفاله. لم يعد يبكي. كـان يـحدق مـبهورا فـي القـبور التـي تتكاثر لحظة بلحظة. وعندما ينظر إلى شخص ما كأنه يحدق في الفراغ؛ وبما انه كان يضجر مصاحبة البشر كان يتحدث مع نفسه. فقد دفنوا اطفاله إلى جانب قبر عمه الذي كتُب عـلى قــبره: المـرحـوم دهش بـني خـفاجة، الولادة ١٩٣٥، الوفـاة ١٩٨٥.

ساشتري ٣ صخور مرمرية لهؤلاء الاطفال الثـلاث و ساكتب عليها: الشهداء، عدنان خفاجة البالغ من العمر سنتين، و علوان خفاجة البالغ من العمر ٤ سـنوات، و نـبهان خـفاجة البالغ من العمر ٧ سنوات. ارواحهم في الجنة ان شاءالله.

عمي لم يكن كبير السن، لكنه نجا مـن عـذاب هـذه الدنيا. كان مضطرا ان يقوم كل يوم بتجميع ما يمكن تجميعه من اثاث البيت ليتجه و عائلته إلى الصحراء خـارج المـدينة.

فقد كانت خيمة «التربولين» تصونهم من الموت المبكر تحت حرارة الشمس التي تصل في معظم الاحيان إلى ٦٠ درجة مئوية. وكانت اليرابيع والافاعي تملأ لياليهم الحالكة. فقد مات عمي ونجا؛ لكننا نحن نموت ببط. العم كان سالم المزاج، اسلم من جاسم. غيران الجلطة قضت على حياته. جميعنا محاصرون، بين نيران الحرب و نيران الشمس. لايمكن لأحد ان يهرب من هذه المهلكة. انا الذي اصغر سنا منه ب ١٥ عاما عندما انظر إلى شواربه الكثة و الوشام المنقوشة على ساعديه وهندامه القوي لن آمل كثيرا بالحياة بسبب مرض الكلى الذي اعاني منه.

اللهم انت تعلم احوالنا اكثر منا وتعرف مصالح عبادك احسن منا؛ فاقبض ارواحنا و انقذنا من هذه الحياة البائسة إذا شعرت بضرورة ذهابنا. آه... كيف يمكن لي ان اعيش، إذا تم استئصال كليتي اليمنى؟ فالحياة تسحق الإنسان السليم والصحيح فكيف بي انا المريض العليل؟

اقول لزوجتي: «هذه اليرابيع تفرخ دون هوادة». و ترد عليّ بالقول:

«لا يهمها القصف».

فاشعر بالحقارة حينما افكر بانني يجب ان اتحمل جهاز «الدياليز»؛ لكنني ساخضع لها.

تلقيت نبأ موت ابني الرابع و تقبلته بسهولة جدا. فحضوري الدائم في المقبرة ادى إلى مغادرة العواطف من قلبي حيث اصبح كالحصى الصلدة المنتشرة بين القبور. فقد ضاع الحساب وضاع عدد الضحايا التي فقدتها اسرتنا. لايهمنا بعد الان ما يحدث لسائر الناس. فتكفيني معاناتي و تكفي لاجدادي أيضاً. اتصفح الصحف: لم يكتب احد شيئا عن امواتنا، ما عدا الله الذي يسجل كل شي في صحيفته. كان بامكانهم، في الاقل، ان يحرروا في صحفهم سطرا واحدا:

« فقد دهست سيارة عسكرية من طراز لندكروز آخر ذرية بني خفاجة و اردته قتيلا و ذلك عندما كانت تسير وسط المدينة بسرعة ١٢٠ كلم في الساعة».

اشعر باشتداد المرض، حيث لم تسعفني صحتي ان امسك بالكتاب. فاضع ورقة سوداء بين الصفحة ٤٣ و ٤٤ و يسقط الكتاب من يدي دون ارادتي.[١]

---

١ مدينة الأهواز: ١٩٨٨ (نهاية الحرب العراقية ـ الإيرانية).

التعليقات

هذه التعليقات مأخوذة من موقع www.arabicstory.net

حول قصة النخلة

التعليق ١

هل صحيح أن النخلة هي قريبة الإنسان وان بين الإنسان والحصان علاقة نسب. اتذكر انني قرأت شيئا من هذا القبيل على لسان ابن سينا ان لم تخني الذاكرة. عندما قرأت نصك زالت كل شكوكي دفعة واحدة. النخلة أكثر من ذلك بكثير أنها نسغ الحياة لمن يقترب منها أكثر ويفهمها. أحببت جدا هذا النص ليس فقط لأنني أعشق التمر إنما لأنه نص مختلف فيه الكثير من الصدق والثقة والدفئ. سابقا أعجبت بقصة ريمي وتفاعلت معها. وانت اليوم تثبت أن قلمك يستطيع امتطاء صهوة أكثر الجياد جموحا. لغتك ثرية وسردك متقن. دمت لي. روضة سالمي

***

التعليق ٢

تحية إلى ذلك النسغ الحي الخالد، و إلى نخلة الأهواز البعيدة القريبة، تمضغني المشاعر و أنا أسافر معك في ظلمات المكان و الزمان و أملي الأكبر ليلة الرابع عشر! ففي كل شهر لي عيد! تحية و مودة و لتبق سامقا كنخلة لا تنكص أبدا ما دام هناك قمر.

علي احمد ناصر سوريا ـ السعودية

***

حول قصة ريمي

التعليق ١

هل تفيد ؟ هل يكفي كلمة حزن أو فعل بكاء بعد قراءة هذا النص. إني يائس وحزين وقد شعرت أني ضعيف ساذج كالقطط وضحية بلا ثمن.

آدم حمص ـ حمص سوريا

***

التعليق ٢

في الواقع قرأت هذه القصة أكثر من مرة ولا أجد شيئا

أقوله غير أنها رائعة فهي تأخذنا في مناخات جديدة وأجواء لم نألفها بطريقة سلسة ومتزنة، ناهيك عن أنني أحب القطط.

روضة - تونس

***

التعليق ٣

قصة جميلة ومأساوية جداً وأنا بالنسبة إليّ أحبذ القصص المأساوية، ولكن لدي سؤال هل القصة حقيقية أم لا؟

فاطمة العصفور - البحرين

***

التعليق ٤

لقد قرأت هذه القصة اليوم ولم انتبه لتاريخها وهي قصة قديمة في الموقع ولسوء حظى لم أقرأها قبل اليوم. واعتقدت انها جديدة. فيا حبذا لو يتم التنبيه إلى مثل هذه القصص المميزة بشكل مستمر وحتى بعد نشرها بمدة ليطلع عليها اكبر عدد من القراء وفي اوقات مختلفة. مع الشكر لكاتبها وللاخ جبير (مدير الموقع)

د. طارق البكري - مصر

***

التعليق ٥

القصة تحمل على التنافر الزمني والمكاني. ينقلنا الكاتب دون ان نعرفه إلى الأزمنة التى يريدها والأمكنة التي يحبها. هذه القصة الشعرية او القصيدة النثرية مكتوبة باسلوب بسيط يرقى إلى الشعر حقيقة. صاحبها يمتاز بالرقة ويعرف كيف يوظف أدواته من شخوص وبيئة زمانية ومكانية . رأيت في القصة جدلية بين الطرفين. فيها نوع من الأخذ والطرح. التمازج مع البيئة والرضى بالواقع وحب الأشياء. قصة تحتاج لقراءات متعددة ليستوعب القاري ما تخفيه من درر. فكأنها محارة في جوف بحر مضطرب. نجح الكاتب في التصوير والتجميع والتفكيك. شكل في مخليتي -كقاري متواضع- بعدا نفسيا زمانيا حملني من خلاله إلى ضفاف بحره. ساقني بغير ارادة إلى ريمي، سمعت مواءها، سمعت هدير المركب وهو يتماوج فوق الماء، لفحنى الهواء البارد. عسى ان يتبنى الأخ جبير فكرة القصة الأسبوعية المتميزة لترشح هذه القصة لهذا الاسبوع. ومنا إلى الأخ جبير.

د. طارق البكري

***

التعليق ٦

مبدع خلاق. لقد نقلت جمال البحر، نقلت طغيانه، نقلت احساس الإنسان الضجر المحروم إلى المرأة في لحظات ممنوع، حرام يايوسف تجعل ريمي ضحية لضجرك، شهيدة لإحساسك، شكراً.

محمد الغربي عمران - اليمن

***

التعليق ٧

قصة بديعة تكشف عن عالم البحارة بكل مرارة؛ صدق معايشة، ماء ممتد كالسراب على وجه الأرض، وأيام ممتدة كالسراب على صفحة الزمن؛ وكل البحارة مثل «ريمي» يستاءون، يغضبون، يكتئبون، وقد يلقوا بأنفسهم إلى هوة البحر أو هوة اللاشئ فريسة لسمكة قرش أو رئيس باخرة ! تحياتي للقاص المبدع يوسف عزيزي.

د. حورية البدرى إسكندرية - مصر

***

التعليق ٨

عوض الشاعري - ليبيا

إن المبدع (يوسف عزيزي) أراد أن ينقلنا إلى أكثر المناطق توتراً وسخونة منذ أكثر من ٣٠ عاماً ألا وهي منطقة الخليج. نص رائع يفوح برائحة الفجيعة، يحتاج إلى اكثر من قراءة. مزيداً من الإبداع والتواصل.

***

التعليق ٩

سعاد آل خليفة ـ مملكة البحرين

أشعر وكأنها نسيج من واقع الحياة ! وكأنها تسللت من أعماقك وأبرزت نفسها في نص سردي رائع ! تحياتي لقلمك ..

***

التعليق ١٠

يوسف بن غيث ـ الوطن المحتل (فلسطين)

للبحر اسرار لانفهمها ولربما ريمي هجست شيئا ما.

***

التعليق ١١

وليد ـ عبادان

رائعه بحد ذكرتني بايامي القديمه.

***

التعليق ١٢

محمد الخليفه ـ السعودية

رائعه جداً.......ومؤثرة

***

حول قصة طاق كسري

التعليق ١

سوزان خواتمي سوريا- حلب

يكتب التاريخ أدباً بهذه الطريقة. حيث دلالات النص مقتطف من حيوات مديدة. تسير الحافلة برفقة ظل وسائق لايعرف الطرقات. تحية لنص مكتوب باتقان.

***

التعليق ٢

خميس بالعيد ـ الإمارات العربية المتحدة

المحترم/ يوسف عزيزي فكما قلت رغم الظل الأسود المرافق للرحلة الجميلة، فتستمر الحياة، والدماء لا تغسل بالدماء بل بالماء.

***

التعليق ٣

خميس بالعيد الامارات العربية المتحدة

الأستاذ الموقر يوسف عزيزي «طاق كسرى» صورة فنية تعكس امتزاج حضارات عملاقة، رغم وجود «الظل» وهو اللعنة، الجواسيس، الظلم المبخل و ستستمرالحياة، و ستسحق شمس الحقيقة العادلة الكريمة الظلال الهيلاسيلاسية.

***

التعليق ٤

سليم الشيخلي الكويت

مندهشاً أمام نص جري. مر في بلدتي متناسياً سنوات الحرب ليكتب بالحب عن شوارعها وناسها وكيف يلتقي السجين والسجان في رحلة لطاق كسرى. كم يملك من الجرأة في دفن الماضي وبناء علاقات إنسانية. اما الشكل كقصة فكانت نشيد يترقرق في ذاكرتي ببساطة رغم اني أختلف معه في قراءة التاريخ لاني لم أقرأ أن الرشيد يقتل النساء. أشد على يديك، قلمك وأفكارك الجميلة.

***

التعليق ٥

رزق فرج رزق بن الكاسح - الجماهيرية العربية الليبية / طبرق

الاخ يوسف عزيزي تحياتي، قرأت القصة هي رائعة و فيها مقومات القصة القصيرة.

***

حول قصة أنا و مطرود و عبود

التعليق ١

مطرود الاهوازي - الاهواز

هذه القصه جيده تحكي لنا عن زمان المعاناة التي عشناه و نرجو المزيد من هذا النمط من القصص و شكرا.

***

التعليق ٢

عايدة النوباني - فلسطين

الأخ يوسف عزيزي. قصتك لها نكهة خاصة اخذتني إلى اجوائها بعمق، أردت أن اسجل اعجابي. فالقصة تحتاج لعدة قرآءات لنلم بكل تداعياتها.

***

التعليق ٣

فطيم - البحرين

يكون للقصة طعم عندما تكون من واقع الحياة، القصة رائعة جداً نتمنى المزيد من الكتاب الذين يملكون هذا الفن في ايديهم.

***

التعليق ٤

علي احمد ناصر سوريا - السعودية

فن خاص يتميز به إبداعك أخي الكريم، فيه طعم الشاي بعد اشتهاء، و رائحة القهوة بعد غياب. و فيه جاذبية خاصة تجذبني أو تسترجع فيّ حب الأهواز. و ليس للهوى وساطة في تجميل روعة النص، أو توطيد أركانه الأصيلة في عمق تربة الأدب الرفيع.

***

حول قصة القطار

التعليق ١

زكية لوشاني - الجزائر

اخي يوسف احييك على اللغة الجميلة التي تملكها مع

انك تكتب بالفارسية أيـضاً؛ قـد اعـطيتني دفـعا جـديداً مـن الحماس و الايمان برسالتي التي وهبت العمر لها، الحق كنت دائما مؤمنة انه مثل الفلين لا يغرق ابـدا. احب ان اشـجعك لان الحق يحتاج لاصوات لا تخيفها الدبابات لانـها تـؤمن بحياة انقى و هي وعد لابد منجز.

***

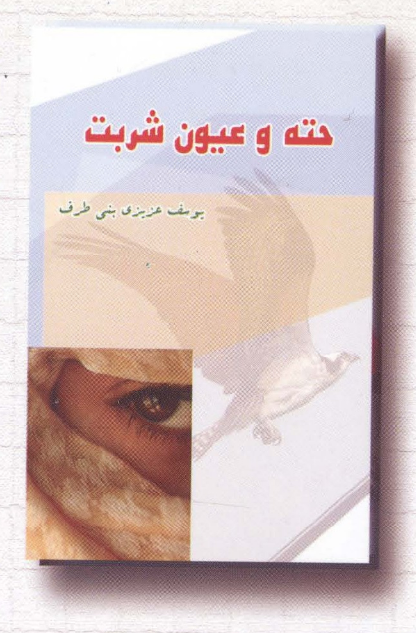
التعليق ٢

باسم - المانيا

ذكرتني هذه القصة بالحلاج رحمه الله.

***

فهرس الكتاب



مركز التوزيع:
انتشارات مكتبة المنصورى
اهواز، كوت عبدالله، شارع مستشفى سينا
هاتف: ۵۵۵۱۵۰۲
Email : www.mak_almansoori@yahoo.com